

البيان زهير

بحث بقلم

مفتي مصر محمد عبد البر البرزوقي

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م

الكتاب الصغير

بحث بقلم

م. طغی عنید المرزوق

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٨ هـ — ١٩٣٠ م

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عرفت شعر البهاء زهير إذ أنا صبي - أقرأ على والدي - يرجه الله -
شيئا من كتب الأدب في بعض الليالي . وقد أحببت شعر البهاء
زهير منذ عرفته .

كان يتأتى لعقلي الناشئ أن يستشف معانيه من ثنايا ألفاظه
اللطيفة وتراكيبه ، على حين تقوم الألفاظ والتراكيب حجبا دون
لمعاني كشيئا في الشعر أحيانا وفي النثر . وكان موقع وزنه الموسيقي
ينغمه يستثير في نفسى أريجاً وطرباً ، حتى لتأثر بذلك ذوقى ، فهو
هفو في البيان الى نوع من الأنغام والوزن .

ثم درست بعد ذلك سيرة البهاء زهير فيما كتب الكتّابون عنه
وفما حفظت لنا الأيام من آثاره ، فتجلى لى من امتياز الرجل
وتفوقه ما ملأنى حباله وتقديرا .

البهاء زهير مثال من مثل الخلق العظيم : يجمع الى حب الخير
وفضيلة العفو قوة الشخصية وشرف النفس وعزة الإباء . وتلك
صفات لا تجتمع إلا لأهل الفطر الفائقة ، خصوصا في عصر
كعصر البهاء زهير ولمن كان في مثل منصبه .

كان البهاء زهير صديقا للشاعر المشهور جمال الدين المصري يحيى بن مطروح الذي وُلِدَ بأسسوط سنة ٥٩٢ هـ ، ثم أقام بقوص زمنا . وفي قوص تعارف البهاء زهير وابن مطروح ، وعاشا كالأخوين أيام الصبا ، ثم اتصلا معاً بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب من قبل أن يتولى الملك في حياة أبيه الملك الكامل ، واستمرا في خدمته بعد أن صار ملكا .

أما ابن مطروح فكان في صورة وزير لدمشق ، وحسنت حاله وارتفعت منزلته .

قال ابن خلكان : « وفي سنة ٦٤٦ عزل ابن مطروح عن ولاية دمشق ... ثم عاد الملك بعسكره الى الديار المصرية وابن مطروح في الخدمة والملك الصالح متغير عليه متنكر له ، لأمر تقمها عليه . وخيم الملك الصالح عسكره على المنصورة وابن مطروح مواظب على الخدمة مع الإعراض عنه . ولما مات الملك الصالح وصل ابن مطروح الى مصر وأقام بها في داره الى أن مات سنة ٦٤٩ هـ » .

أما البهاء زهير فقد بلغ رتبةً تراحم الوزارة جاهها أو تزيد ، وهي رتبة الرياسة لديوان الإنشاء . وقد تنكر له الملك الصالح أيضا في أواخر أيامه وعزله ، في حديث نرويه مفصلا بعد ، فأبى البهاء زهير شرف نفسه أن يتنصل من ذنب لم تكن كل تبعته عليه ،

وأبى له شمه أن يقيم في الخدمة مع الإعراض عنه ، فرحل من فوره
الى داره ولزمها فقيرا معدما حتى مات .

واذا كان البهاء زهير عظيما في خلقه ، كما رأيت ، فهو عظيم
أيضا بمقامه في تاريخ الأدب العربي .

عاش البهاء زهير في القسم الأخير من العصر العباسي ، وكان
الأدب العربي في هذا الدور قد جاوز المدى في التعميق والعناية
بالمحسنات البديعية والسجع والإغراب اللفظي .

وأشهر أئمة الإنشاء في ذلك العصر رجلاان : أحدهما القاضي
الفاضل محي الدين ، أو مجير الدين ، أبو علي عبد الرحيم البيهقي
ثم العسقلاني ثم المصري ، وزير صلاح الدين وصاحب ديوان
الإنشاء لعهد المتوفى سنة ٥٩٦ هـ ،

وثانيهما العماد الكاتب الوزير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن
حامد الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ

ويلقب القاضي الفاضل بشيخ البلاغة ، ويلقب العماد الكاتب
بعمدة المنشئين .

وقد أدخل العماد أساليب الترسيل بما فيها من سجع وجناس
وأقتباس واستعارات وكنايات ، في المؤلفات العلمية ، فكتب
في التاريخ كتبا على هذا الطراز : مثل مؤلفه المعروف بالفتح القسي
في الفتح القدسي .

أما القاضي الفاضل فله في كتابة الإنشاء طريقة تعرف
بالطريقة الفاضلية ، سار على نهجها أهل عصره ومن جاء بعده
عصره ، وفشت في الأدب العربي . وقد سنّ سننا فيما تصدر به
الرسائل والتواقيع وما تختم ، وفي أساليب الدعاء وغير الدعاء .
وتمتاز الطريقة الفاضلية بالإطناب وكثرة الاقتباس والتضمين
والمطابقة والتورية والمجاز مع الإسراف في الجناس وما إليه من
المحسنات اللفظية ومع الميل إلى المفردات الغريبة والتراكيب الفخمة .
عين البهاء زهير رئيسا لديوان الإنشاء في الدولة الأيوبية ،
فحل محلا كان القاضي الفاضل صاحبه من قبل ، وتولاه بعده
تلميذان من أتباع مذهبه .

جاء البهاء زهير والطريقة الفاضلية في عنفوان مجدها ، فابتدع
هو في الشعر والإنشاء نمطا جديدا خرج به عن التقاليد المرسومة
في صور المخاطبات وفي الأساليب : فهو موجز لا يحب الإطناب ،
وهو مقتصد في زينة اللفظ ، وهو نزاع إلى الوضوح والبساطة فلا
يرضى كثرة المجاز والكناية ، وهو عدو للجمود على نظم في البيان
تقتل مواهب الإبداع والتفنن .

ثم هو لا يريد أن يستبدل الناس بكلامهم العادي كلام الجاهلية
الأولى إذا نظموا الشعرا أو كتبوا ، وإنما يريد أن يصحح الشعراء
والكتاب أساليبهم على مقتضى القواعد العربية ، حتى لا تنقطع

الصلة بين ماضيهم وحاضرهم ، من غير أن يجنى ذلك على سهولة التفاهم ولا على حركة اللغة ونموها وحياتها .

هذا المذهب الجديد في إصلاح الأدب العربي لم يلق في ذلك المصر ما يمدّه ويقوّيه ، ولم يكن البهاء زهير بفطرته السمحة وخلقته الوديع رجل كفّاح يجاهد متحمسا في سبيل دعوة لمذهب جديد . لم يرق لكثير من الأذواق التي أفسدها التقليد هذا المذهب الذي يفك عنها قيودها ويخلصها من التكلف الى مسامرة الفطر . ولقد أغفل المؤرخون الذين وقفنا على مؤلفاتهم شأن البهاء زهير في ديوان الإنشاء ، حتى من تخصص منهم بهذا الموضوع كالقلقشندي صاحب كتاب صبح الأعشى ، فلم يرو لنا منهم أحد شيئا من الرسائل التي كتبت بقلمه على كثرة ما نقلوا من رسائل كتاب هم دونه مقاما .

وكل ما عثرنا عليه من ذلك رسالته في الرد على كتاب لويس التاسع ملك فرنسا الى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وسنعرض لها فيما بعد . ذكر هذه الرسالة الإسحاق في تاريخه ، ثم أوردتها المقرئ في خطه ، ونقلها على مبارك باشا في الخطط التوفيقية .

وهذه الرسالة المفردة تهدي ، عند مقارنتها بما كان يكتبه القاضي الفاضل والعماد الكاتب وأضربهما ، الى المنازع التي اختص بها البهاء

زهير ويعين على ذلك ديوان شعره ، وعسى أن يوفق الباحثون
الى أخوات لهذه الرسالة تزيدنا علما بطريقة البهاء زهير وخصائصها .
هذا ، ولست أعرف شاعرا نفخت مصر فيه من روحها
ما نفخت في البهاء زهير ، فهو مصرى في عواطفه ، وفي ذوقه ،
وفي لهجته الى الغاية القصوى ، وان كان مولده في بلاد الحجاز .

من أجل ذلك كله ، وضعتُ هذا البحث في البهاء زهير الشاعر
المصرى ، إحياء لذكرى رجل جدير بأن يحيا بيننا تذكاره . وقد
سبقنى في العام الماضى الى نشر بحوث في البهاء زهير وشعره
الأستاذان المنشاوى والسقا المدرسان بالمدارس الثانوية الأميرية ،
والأستاذ الشايب المدرس بالجامعة المصرية ، واطلعت على ما كتبوا
بعد أن فرغت من رسالتى .

وقد تحزى الأساتذة مطابقة المنهج الذى وضعته وزارة المعارف
لدرس الأدب العربى وتاريخه ، فلهم فى البحث وجهة غير وجهتى ،
وهذا ما يسوغ لى أن أنشر رسالتى بعد أن نشروا كتابيهم القيمين ،
معترفا بفضلهم ، مثنيا عليهم جميل الثناء .

مصطفى عبد الرازق

مصر فى مارس ١٩٣٠

البهاء زهير

(١)
أبو الفضل زهير بن محمد بن علي بن يحيى بن الحسن بن جعفر
ابن منصور بن عاصم المهبلي العتكي الأزدي الملقب بهلم الدين
المعروف بالبهاء زهير .

والمهبلي نسبة الى المهلب بن أبي صفرة ، فالبهاء زهير ينتسب
الى المهلب الذي كان من أشجع الناس وكان سيّدا جايلا .
روى أنه قدم على عبد الله بن الزبير أيام خلافته بمكة ،
فخلاه به عبد الله يشاوره ، فدخل عليه عبد الله بن صفوان بن أمية
القرشي ، فقال : من هذا الذي قد شغلك يا أمير المؤمنين يومك
هذا؟ قال : أما تعرفه؟ قال : لا ، قال : هذا سيّد أهل العراق ، قال :
فهو المهلب بن أبي صفرة ! فقال المهلب : من هذا يا أمير المؤمنين؟
قال : سيّد قريش ، قال : فهو عبد الله بن صفوان؟ قال : نعم
وتوفي المهلب سنة اثنين وثمانين وخلف عدّة أولاد نجباء أجوادا
أجادا ، وتسلسل المجد في ذريته زمنا طويلا .

والعتكي (بفتحيتين) نسبة الى العتيك : بطن من قبيلة الأزد .
والأزد هي أزد شنوءة ، ويقال الأسد بالسين .

(١) في كتاب النجوم الزاهرة لأبي المحاسن يوسف بن تفرج بردي المتوفى
سنة ٨٧٤ هـ : « أبو الفضل وقيل أبو العلاء » .

و يصف بعض المؤرخين البهاء زهيراً بالجحازي ، و يصفه بعضهم بالمصري ، و يجمع له آخرون بين الوصفين .

ولئن كان مولد البهاء زهير بمكة أو بوادي نخلة بالقرب من مكة ، في روايتين رواهما عنه ابن خالكان الذي عرفه و اجتمع به ، فإن البهاء زهير مصري المنشأ ، مصري الروح ، مصري العاطفة ، وهو القائل :

فرعني الله عهد مصر وحيًا	ما مضى لي بمصر من أوقات
حبذا النيل والمراكب فيه	مُصعِدات بنا ومنحدرات
هاتِ زِدني من الحديث عن النيل	لي ودعني من دجلة والفرات
وليالي بالجزيرة والحيه	نزة فيما اشتميت من لذات
بين روض حكي ظهور الطواوي	س وجو حكي بطون البزاة
حيث مجرى الخليج كالحيّة الرقة	طاء بين الرياض والحنات

والقائل :

ولم أر مصرًا مثل مصر تروفتني
ولا مثل ما فيها من العيش والخفّض
وبعد يزدى فالبلاد جميعها
سواء ، فلا أختار بعضًا على بعض

والقائل :

أأرحلُ عن مصرٍ وطيبٍ نعيمها
وأتركُ أوطاناً ثراها لنا شقي
بلادُ تروقُ العينَ والقلبَ بهجةً
وأى مكانٍ بعدَها لي شائقُ
هو الطيبُ لآما ضمنتَه المفاقرُ
وتجَمَّعَ ما يهوى تقي وغاسقُ

وهو الذى يقول أيضا :

سقى وادياً بين العريش وبرقة
وحياً النسيم الرطب عني إذا سرى
بلاد متى ما جئتمها جئت جنةً
تمثل لي الأشواق أن تراها
فيا ساكني مصرٍ تراكم علمتم
وما في فؤادي موضع أسواكم
عسى الله يطوى شقة البعد بيننا
على بذاك اليوم صوم نذرته
من الغيث هطال الشايب دتان
هنا لك أوطاناً إذا قيل أوطانُ
لعينك منها كلما شئت رضوانُ
وحصباءها مسك يفوح وعقيانُ
بأنى مالى عنكم الدهر سلوانُ
ومن أين فيه وهو بالشوق ملآنُ
فتهدأ أحشاء وترقأ أجفانُ
وعندي على رأى التصوف شكرانُ

ومن كان هذا هُتافه بحب مصر فهو مصرى وإن كان مسقطه
رأسه بلاد الحجاز باجماع من ترجموا له .

* * *

ولد البهاء زهير خامس ذى الحجة سنة ٥٨١ — (٢٧ فبراير
سنة ١١٨٦) . وتوفي قبل مغرب يوم الأحد رابع ذى القعدة من

سنة ٦٥٦ — (٢ نوفمبر سنة ١٢٥٨) بوباءٍ حدث بمصر والقاهرة
ذلك العام ، ودفن من الغد بعد صلاة الظهر بتربته في القرافة
الصغرى غير بعيد من قبة الإمام الشافعي رضي الله عنه في جهتها
القبليّة .

ونشأ البهاء زهير في مدينة قوص بالصعيد الأعلى كما ذكره
السيوطي في "حسن المحاضرة" . ولم يذكر ابن خلدون في ترجمته
الطويلة للبهاء زهير نسبه الى قوص ، لكنه ذكر في ترجمته لجمال الدين
ابن مطروح أنه كان بين الاثنين صحبة قديمة من زمن الصبا ،
وإقامتهما ببلاد الصعيد حتى كانا كالأخوين ، وليس بينهما
فرق في أمور الدنيا ، ثم اتصلا بخدمة الملك الصالح وهما على تلك
المودة . وابن مطروح من مدينة أسيوط . وقوص يومئذ هي أكبر
مدن الصعيد ، وليس بأرض مصر بعد القسطنطينية أعظم منها ،
وهي باب مكة واليمن والنوبة وسواكن ، حفلة الأسواق ، متسعة
المرافق ، فيها تنزل القوافل الواردة من بحر الهند والحبش واليمن
والحجاز ، وفيها كثير من الفنادق والبيوت الفاخرة ، والحمامات
 والمدارس والبساتين ، ويسكنها أرباب الصنائع والفنون والتجار
والعلماء والأغنياء ، وكانت ملتقى الحجاج المغاربة والمصريين
والإسكندرانيين ومن يتصل بهم ، منها يذهبون الى جدة واليهما
انقلابهم في صدورهم من الحج .

وقوص من قديم الزمان مَنبَع العلم والعلماء . ويقول صاحب
كتاب "الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد"
وهو كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر الأدفوي
المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) : إن بقوص ستة عشر مكاناً للتدريس

ولم يرد للبهاء زهير ذكر في كتاب الأدفوي إلا عرضاً

ولم يحدثنا أحد ممن ترجموا للبهاء زهير عن سيرة أبيه ، غير أنا
وجدنا في نسخة خطية قديمة بدار الكتب المصرية لديوان شعر
البهاء زهير — رقم ٢٠٥١ أدب — وصف أبيه « بالعارف محمد
قدس الله روحه » ، وينعت بذلك في العادة أهل الصلاح والتقوى .

وانتقال والد البهاء زهير من مكة الى قوص في تاريخ غير
معروف ، إلا أن كلام المؤرخين ، كابن خلكان ، يفيد أن البهاء
زهيرا قضى زمن صباه في الصعيد ، ونشأ الولد بينه وبين ابن مطروح
في ذلك العهد .

وربما يسبق الى الظن أن البهاء زهيراً كان طفلاً حين هاجرت
أسرته الى وادى النيل ، لكنا نجد في شعره قصيدتين يذكر فيهما
عهده بالحجاز . أقما أولاهما فهى :

أَحِنُّ الى عهدِ المحَصِّبِ من مِنى	وعيش به كانت تَرِفُ ظِلَالُهُ
ويا حَبَّذا أمواههُ ونسيمهُ	ويا حَبَّذا حصباؤهُ ورمالُهُ

ويا أسفى إذ شَطَّ عني مزاره
 وكم لي بين المروتين كُبانهُ
 مُقيم بقلبي حيث كنت حديثهُ
 وأذكر أيامَ الحجاز وأنثى
 ويا صاحبي بالخيِّف كن لي مُسعيداً
 وخذ جانب الوادى كذا عن يمينه
 هناك ترى بيتاً لزَيْنَب مشرقاً
 فعرضْ بذكرى حيث تُسمع زَيْنَبُ
 عساها إذا ما مرَّ ذكرى بسمعها
 ويا جزنى إذ غاب عني غزالهُ
 وبدرُ تمام قد حوَّته حِجَالهُ
 وبادٍ لعيني حيث سرت خيالهُ
 كأنى صريع يعتريه خَبَالهُ
 إذا آن من بين الحجيج ارتحالهُ
 بحيث القنأ يهتز منه طوالهُ
 إذا جئت لا يخفى عليك جلالهُ
 وقل ليس يخلو ساعةً عنك بالهُ
 تقول : فلان عندكم كيف حالهُ

والقصيدة الثانية هي :

سقى الله أرضاً لست أنسى عهدَها
 ويا طولَ شوقي نحوها وحنيني
 منازلُ كانت لي بهنَّ منازلُ
 وكان الصبا إلْفى بها وقريني
 تذكرتُ عهداً بالمحصب من مَنى
 وما دونه من أبطح وحجون
 وأيامنا بين المقام وزمزم
 وإخواننا من وافي وقطين

زَمَانٌ عَهِدْتُ الْوَقْتَ لِي فِيهِ وَاسِعًا
 كَمَا شِئْتُ مِنْ جَدِّ بِهِ وَمُجُوبٍ
 إِذِ الْعَيْشُ نَضَّرَ فِيهِ لِلْعَيْنِ مَنَظَرَ
 وَإِذْ وَجْهُهُ غَضُّ بِغَيْرِ غُضُونٍ
 وَلَيْسَتْ ذِكْرِيَّاتِ طِفْلِ هَذِهِ الذِّكْرِيَّاتِ الَّتِي يَحِنُّ إِلَيْهَا
 زَهِيرٌ إِلَى عَهْدِهَا بَيْنَ الْمَقَامِ وَزَمْرِمٍ ، فَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ شَاعِرُنَا جَاءَ
 إِلَى قَوْصٍ فَتَى مُسْتَكْمِلًا .

قال المؤرخون : وَأَنْتَقَلَ الْبَهَاءُ زَهِيرٌ مِنْ قَوْصٍ بَعْدَ أَنْ رُبِّيَ
 فِيهَا وَقَرَأَ الْأَدَبَ وَسَمِعَ الْحَدِيثَ وَبَرَعَ فِي النِّظْمِ وَالنَّثْرِ وَالتَّرْسُلِ ،
 وَوَصَلَ إِلَى الْقَاهِرَةِ فَاتَّصَلَ بِخِدْمَةِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ أَبِي الْفَتْحِ
 نَجْمِ الدِّينِ أَيُّوبَ فِي حَيَاةِ أَبِيهِ الْكَامِلِ أَيَّامَ كَانَ نَائِبًا عَنْهُ .

وَيُظْهَرُ أَنَّ الْبَهَاءَ زَهِيرًا كَانَ اتَّصَلَ قَبْلَ ذَلِكَ بِخِدْمَةِ الْأَمِيرِ
 مُحَمَّدِ الدِّينِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ اللَّيْطِيِّ الَّذِي هُنَا شَاعِرُنَا سَنَةَ ٦٠٧ لِتَوَلَّيْهِ
 أَعْمَالَ الْقَوْصِيَّةِ بِقَصِيدَةٍ هِيَ أَوَّلُ مَدِيحِهِ — كَمَا فِي طَبْعَةِ پَاهِر —
 مَطْلَعُهَا :

تَمَلَّيْتَهُ يَا لَا بَسَ الْعِزِّ مَا بَسَا وَهَنَّتَهُ يَا غَارِسَ الْجُودِ مَغْرَسَا
 وَمِنْهَا :

بِهِ أَصْبَحْتَ قَوْصٌ إِذَا هِيَ فَاخَرَتْ
 أَعَزَّ قَبِيلٍ فِي الْأَنَامِ وَأَنْفَسَا

ومنها :

لقد شرفت منه الصعيد ولايةً وأصبح واديه به قد تقدسا

ونجد للبهاء زهير قصائد في مدح هذا الأمير يلتمس في بعضها

العون منه ، كقوله :

عسى نظرة من حسن رأيك صدفة

تسوق الى جذبي بها الماء والكلا

فهاذا أشكرو الزمان وصرفه

وتأنف لي عليك أن أتبدلا

مقيم بأرض لا مقام بمثلها

ولولاك ما أحرث أن أتحولا

فخذ لي بحسن الرأي منك لعاني

أرى الدهر مما قد جرى متصلا

وهل كنت ألا السيف خالطه الصدى

فكنت له ياذا المواهب صيقلا

ونجد في ديوان البهاء زهير مدحا للامير وتهنئة بشهر الصوم

سنة ٦٠٩ في قصيدة تفيض بالشكر والثناء ، منها :

مولي بدأ من غير مسألة بها جاز المسدى كرمًا وعاد كما بدأ

وأنال جودًا لا السحاب ينيله يومًا وإن كان السحاب الأجودا

وفي قصائد أخرى مدح وثناء أيضا، كالقصيدة التي مطلعها:

لها خَفَرٌ يومَ اللقاء خفيرها فما بالها ضنّت بما لا يضيرها
وما نالني من أنعم الله نعمة وإن عظمّت إلا وأنت سفيرها
ومن بدأ النعمى وجاد تكرمًا بأولها يرجى لديه أخيرها

ثم نجد بعد ذلك شعرا للبهاء زهير في مدح الأمير مجد الدين اللطىّ ينم عن شكوى وعتب . وفي بعض القصائد تصريح بأن البهاء زهيراً كان كاتباً للأمر ثم انفصل من خدمته . ففي سنة ٦١٩ أو سنة ٩١٢ (على نسختين مختلفتين من نسخ الديوان أرجح أولاهما) قال البهاء زهير في الأمير مجد الدين بن إسماعيل بن اللطىّ قصيدته التي أولها :

لنا عندكم وعدٌ فهلاً وفيم وقاتم لنا قولاً فهلاً فعلم
حفظنا لكم ودّاً أضعتم عهدَه فشتان في الحالين نحن وأنتم

ومنها :

فيا تاركى أنوى البعيد من النوى إلى أى قوم بعدكم أتيتم
ألا إن إقلياً نبت بي داره وإن كثر الإثراء فيه لمعدم
وإن زماناً ألبأتى صروفه فحاولت بعدى عنكم لمدمم
وأعلم أنى غلط في فراقكم وأنكم في ذلك مشلى وأعظم
فلا طاب لى عنكم مقام بموطن ولو ضمنى فيه المقام وزمزم

ومثلك لا يأسى على فقد كاتب
وفن ذا الذي تُدنيه منك وتصطفني
ومن ذا الذي ترضيك منه فطانه
وما كل أزهار الرياض أريجة
ولمكنه يأسى عليك ويندم
فيكتب ما توحى إليه ويكتب
تقول فيدري أو تشير فيفهم
وما كل أطيار الفلا تستنم

ومن قصائده التي تم عن العتب قصيدة مطلعها :

أعلمتم أن النسيم إذا سرى
نقل الحديث إلى الرقيب كما جرى

ومنها :

مولاي مجد الدين عطفاً إن لي
يا من عرفت الناس حين عرفته
خلق كماء المزن منك عهدته
مولاي لم أهرج جنابك عن قلبي
وكفرت بالرحمن إن كنت أمراً
لمحبة في مثلها لا يمتري
وجهلهم لما نبأ وتذكرا
ويعز عندى أن يقال تغيرا
حاشاى من هذا الحديث المفترى
يرضى لما أوليته أن يكفرا

وقال البهاء زهير أيضا يمدح هذا الأمير وقد انفصل من

خدمته :

آيات مجدك ما لها تبديل
أسفى على زمنٍ لديك قطعته
وإذا انتسبت بخدمتي لك سابقاً
هذا هو الأدب الذي أنشأته
وعلو قدرك ما اليه سبيل
وكأننى للفرقدين تزيل
فكأنها لي معشر وقيل
فاهتز منه روضه المطلول

وربما دلّ كل ذلك على أنّ هجرة البهاء زهير من قوص الى القاهرة كانت بعد انفصاله من خدمة اللطفي بعد سنة ٦١٩ ، ولعل هجرته للاتصال بخدمة الملك الصالح كانت فيما حوالى سنة ٦٢٢ ، فإننا نجد له قصيدة فى هذا العهد مدح بها الصالح ، ستأتى الإشارة اليها ، وقد يكون اتّصل قبل الملك الصالح بأخيه الملك المسعود صلاح الدين أبى المظفر يوسف بن الملك الكامل ، فإن فى ديوان شاعرنا قصيدة مدح بها هذا الملك لما قدّم من اليمن سنة ٦٢٠ كما فى طبعة بالمر ، وأول هذه القصيدة :

لكم أينما كنتم مكانٌ وإمكانٌ ومُلكٌ له تعنُّ الملوك وساطانُ

ومنها :

هو الملك المسعود رأياً ورايةً له سَطوةٌ ذلّت لها الإنس والجانُ
غداً ناهضاً بالملك يحمل عبئه وأقرانه ملك المكاتب ولدانُ
وتتراءى أعوادُ المنابر بأسمه فهل ذكرت أيامها وهى قضبانُ

ومنها :

أعلل نفسى بالمواعيد والمنى وقد مرّ أزمانٌ لذلك وأزمانُ
أرى أنّ عزّى من سواك مدّةً وإنّ حبايى من سواك لحِرمَانُ
وليس غربياً منّ اليه اغترابه له منه أهلٌ حيث كان وأوطانُ
وقد قرب الله المسافة بيننا فيها أنا يحوينى وإياه إيوانُ

وقال يمدحه بعد رجوعه من اليمن ، وأرسل بها من قوص الى

مصر سنة ٦٢١ :

أنتك ولم تبعدُ على عاشقٍ مصريٍّ ووافاك مشتاقاً لك المدح والشعر
الى الملك المسعود ذى البأس والندى فأسيافه حمراً وساحاته خضراً

وتوجه البهاء زهير فى خدمة الملك الصالح الى البلاد الشرقية الى أن ملك الصالح مدينة دمشق ، فانتقل اليها فى خدمته ، وأقام كذلك الى أن جرت الكائنة المشهورة على الملك الصالح وخرجت عنه دمشق وخانه عسكره وهو بنابلس وتفرقوا عنه ، وقبض عليه الملك الناصر داود صاحب الكرك وأعتقله بقلعة الكرك . وأقام بهاء الدين زهير بنابلس وفياً لصاحبه ، ولم يتصل بغيره ، ولم يزل على ذلك حتى خرج الملك الصالح وملك الديار المصرية ، فعاد اليها فى خدمته ، وذلك فى أواخر ذى القعدة سنة ٦٣٧ هـ .

ويقول صاحب كتاب النجوم الزاهرة : إن البهاء زهيراً دام فى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب الى أن توفى الملك الصالح .

وفى صبح الأعشى : أن الملك الصالح نجم الدين أيوب حين تولى ملك مصر ولى ديوان الإنشاء الصاحب بهاء الدين زهيراً ، ثم صرفه وولى بعده الصاحب نحر الدين بن لقمان الأسعردى ، فبقى الى انقراض الدولة الأيوبية .

وفي حسن المحاضرة : ثم وُلِّي ديوانَ الإنشاءِ الصَّاحبُ بهاء الدين زهيرُ الشاعرُ المشهورُ ، ثم صُرِفَ ووُلِّي بعده الصَّاحبُ نحرُ الدين إبراهيم بن لقمان الأسعدي وأقام إلى انقراض الدولة الأيوبية .
واعلَّ الصحيح أن بهاء الدين زهيراً بقي في خدمة الملك الصالح إلى أن مات الملك الصالح في شعبان سنة ٦٤٧ هـ ، فقد ذكر المؤرخون أنه في سنة ٦٤٦ هـ حدث للملك الصالح نجم الدين ورم في باطن ركبته تكون منه ناسور عسر برؤه وانضاف إليه قرحة في الصدر ، فلزم الفراش ، إلا أن علق همتته اقتضى مسيره من ديار مصر إلى الشام ، فسار في محفة ونزل بقاعة دمشق ، ثم خبره مخبر أن رُؤادِ فرنس عازم على المسير إلى أرض مصر وأخذها ، فسار السلطان من دمشق وهو مريض في محفة ونزل بأشهرم طناح في المحرم سنة ٦٤٧ هـ وأعد العدة للكفاح عند دمياط ، وفي أواخر صفر وردت جيوش العدو ، وبعث ملكهم إلى السلطان كتاب تهديد ووعيد ، هذا نصه :

” آقا بعدد ، فإنه لم يخف عليك أني أمين الأمة العيسوية ، كما أنه لا يخفى على أنك أمين الأمة المحمدية .

وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الأندلس وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل الرجال

(١) روادفرنس أوريد فرانس : تعريب للفظ الفرنسي Roi de France بمعنى ملك فرانس . ومؤرخو العرب يجعلون ذلك علها على لويس التاسع الذي كان يقود الحرب الصليبية السابعة .

ونزقل النساء ونستأثر بالبناات والصَّبيان ونُخْلِ منهم الديار؛ وأنا قد
أُديتُ لك الكفاية، وبذلتُ لك النصيحة إلى الغاية والنهاية؛ فلو
جُففت لي بكلِّ الايمان، وأدخلت على القسس والرهبان، وحملت
قُدّامى إشمع طاعة للصُّلبان؛ لكنّك واصلًا إليك، وقاتلك في أعزّ
البقاع عليك؛ فإما أن تكون البلاد لي فيا هدية حصلت في يدي،
وإما أن تكون البلاد لك والغلبة علىّ، فيدك اليمنى ممتدة إلىّ؛ وقد
عرفتك وعرفت ما قلتُ لك، وحذرتك من عساكر حضرت
في طاعتي تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون
إليك بأسياف القضاء“ .

فلما قرئ الكتابُ على السلطان وقد اشتدَّ به المرض بكي
وأسترجع؛ فكتب القاضى بهاء الدين زهير بن محمد الجواب :

”بسم الله الرحمن الرحيم، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله
وآله وصحبه أجمعين . أما بعد، فإنه وصلّى كتابك وأنت تهدد
فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك، ونحن أرباب السيوف، وما
نُقتل منا قرنٌ إلّا جَدَدناه، ولا بَغَى علينا باغ إلا دَمَرناه . فلورأت
عينك أيها المغرور حدَّ سيوفنا وعِظْمُ حروبنا، وفتحنا منكم الحصون
والسواحل، وتخريننا ديار الأواخر منكم والأوائل؛ لكان لك أن
تَعْصَ على أناملِك بالندم، ولا بدَّ أن تَزِلَّ بك القدم، في يوم أقوله
لنا وآخره عليك؛ فهناك تسيء الظنون ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ

مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) . فإذا قرأت كتابي هذا فتكون منه على أول
سورة النحل : ((أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)) ، وتكون أيضا على آخر
سورة ص : ((وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)) ونعود الى قوله تعالى وهو
أصدق القائمين : ((وَكَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً. بِإِذْنِ اللَّهِ
وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)) . وقول الحكماء : «إِنَّ الْبَاغِيَ لَهُ مَصْرَعٌ»
وَبَغْيُكَ يَصْرَعُكَ ، وإلى البلاء يُسَلِّمُكَ . والسلام“ .

فالبهاء زهير كان في خدمة الملك الصالح في أواخر صفر من
سنة ٦٤٧ ، وتوفي الملك الصالح في أواسط شعبان من تلك السنة
بعد أشهر قضاها في مرض مستمر وفي جهادٍ لم يكن كله مظفراً .
بعد هذا الفرض الذي أدى بنا الى ترجيح أن البهاء زهيراً
ظل متصلاً بالملك الصالح الى أن مات الملك الصالح ، وجدنا
في كتاب تاريخ العيني^(١) (الموجود في دار الكتب المصرية ، بالفتوغرافيا
ج ١٩) ما يدل صريحاً على أن الملك الصالح صرف البهاء زهيراً من
خدمته قبل موته بقليل ، فرأينا أن ننقل هذا النص عن نسخة
دار الكتب المصرية :

”قلت : وذكر القطب اليوناني في كتابه الذيل على مرآة
الزمان ، قال في ترجمة البهاء زهير كاتب الملك الصالح ، قال : فلما
خرج الملك الصالح بالكرك من الاعتقال وسار الى الديار المصرية
(١) هو كتاب عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان لبدر الدين محمود العيني المتوفى

كان بهاء الدين زهير المذكور في صحبته ، فأقام عنده في أعلى منزلة وأجل مرتبة ، هو المشار اليه في كتاب الدرج والمتقدم عليهم ، وأكثرهم اختصاصا بالملك الصالح واجتماعاً به . وسيره رسولاً في سنة خمس وأربعين وستمائة إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب ، يطلب منه إيفاد الملك الصالح عماد الدين إسماعيل إليه ، فلم يجب إلى ذلك وأنكر الناصر هذه الرسالة غاية الإنكار وأعظمها واستصعبها ، وقال : كيف يسعني أن أسير عمه إليه وهو خال أبي وكبير البيت الأيوبي حتى يقتله وقد استجار بي ! وأشهد أنني لا أفعلها أبداً . ورجع البهاء زهير إلى الملك الصالح نجم الدين هذا بهذا الجواب ، فعظم عليه وسكت على ما في نفسه من الحق . وقبل موت الملك الصالح نجم الدين أيوب بمديدة يسيرة ، وهو نازل على المنصورة ، تغير على بهاء الدين زهير وأبعده لأمر لم يطلع عليه أحد . قال : حكى لي البهاء زهير أن سبب تغيره عليه : أنه كتب عن الملك الصالح كتاباً إلى الملك الناصر داود صاحب الكرك ، وأدخل الكتاب إلى الملك الصالح ليعلم عليه على العادة ، فلما وقف عليه الملك الصالح كتب بخطه بين الأسطر : « أنت تعرف قلة عقل ابن عمي ، وأنه يحب من يصله ويعطيه من يده ، فاكتب له غير هذا الكتاب ما يعجبه » ، وسير الكتاب إلى البهاء زهير ليغيره والبهاء زهير مشغول ، فأعطاه لفخر الدين

إبراهيم بن لقمان فأمره بختمه بختمه وجهزه إلى الناصر على يد
نجاب ولم يتأمله ، فسافر به النجّاب لوقته . واستبطأ الملك الصالح
عود الكتاب إليه ليعلم عليه ، ثم سأل عنه بهاء الدين زهيرا بعد ذلك
وقال له : ما وقفت على ما كتبتّه بخطي بين الأسطر ؟ قال البهاء
ومن يجسر أن يقف على ما كتبه السلطان بخطه إلى ابن عمه
وأخبره أنه سسير الكتاب مع النجّاب ، فقامت قيامة السلطان
وسيروا في طلب النجّاب فلم يدركوه ، ووصل الكتاب إلى الملك
الناصر بالكرك ، فعظم عليه وتألم له .

ثم كتب جوابه إلى الملك الصالح وهو يعتب عليه فيه العتب
المؤلم ويقول له فيه : « والله ما بي ما يصدر منك في حق ، وإنما بي
اطّلاع كتابك على مثل هذا » ، فعز ذلك على الملك الصالح وغضب
على بهاء الدين زهيرا ، وبهاء الدين لكثرة مروءته ينسب ذلك إلى
نفسه ولم ينسبه لكتاب الكتاب وهو نخر الدين بن لقمان
رحمه الله تعالى .

قال : وكان الملك الصالح كثير التخيّل والغضب والمؤاخذة
على الذنب الصغير ، والمعاقبة على الوهم ، لا يُقبل عثرة ، ولا يقبل
معذرة .

ويلاحظ أن ديوان البهاء زهير ^{دق}خلو من رثاء الملك الصالح وخلو
من مدائحه إلا قليلا .

كان بهاء الدين زهير كاتب ديوان الإنشاء في عهد الملك
الصلاح أو كاتب السرّ : وديوان الإنشاء في عهد الدولة الأيوبية
كان عظيمًا معتنى به ، وكان لا يتولاه إلا أجلّ كتاب البلاغة ، ومتولّى
رتبة كتابة السرّ أعظم أهل الدولة

ومن وظيفة كاتب السرّ قراءة الكتب الواردة على السلطان ،
وكتابة أجوبتها ، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل ، والتوقيع
عليها ، وتصريف المراسيم صدورًا وورودًا .

وكانت تجمع كتابة السرّ الى الوزارة تارة ، كما فعل ذلك
صلاح الدين الأيوبي مع القاضي الفاضل ، وتفصل عنها أخرى
كما استمر عليه العمل بعد القاضي الفاضل .

ويقول بعض المؤلفين : إن بهاء الدين زهيرا كان وزيراً للملك
الصلاح نجم الدين أيوب ويلقبونه بالصاحب بهاء الدين زهير .
والصاحب لقب للوزير إذا كان من أرباب الأقلام . على أن
بهاء الدين زهيرا وإن لم يكن وزيراً فقد كانت رتبته ، وهي رئاسة
ديوان الإنشاء ، تُقاسم الوزارة جاهها ومجدها في عهد الأيوبيين ،
وربما كانت أوفى منها مجداً وجاهاً . ومع هذه المكانة العالية فإن
البهاء زهيرا مات فقيراً . وفي آخر عمره ، كما في تاريخ أبي الفداء
وتاريخ ابن الوردي ، أنكشف حاله حتى باع موجوده وكتبه وأقام

في بيته بالقاهرة حتى أدركه أجله . وأجمع المترجمون له على أنه
كان ذا مروءة ولطيف ومكارم أخلاق ، وقد كان متمكنا من
صاحبه الملك الصالح ولا يتوسط عنده إلا بالخير ، ونفع خلقا كثيرا ،
وبلغ من الرفعة ما لم يباغ به غيره .

والقارئ لشعر البهاء زهير يحس بما في نفس الشاعر من رقة
وحسن ذوق وبعد عن الشر والأذى . ومما يدل على لطيف روحه
أنه قلما يهجو بغير الوصف بالثقل فيقول :

وَتَقِيلُ كَأَنَّمَا	مَلِكُ الْمَوْتِ قُرْبُهُ
لَيْسَ فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ	مَنْ تَرَاهُ يَحِبُّهُ
لَوْ ذَكَرْتَ اسْمَهُ عَلَى الْمَا	ءِ لَمَا سَاغَ شَرْبُهُ

ويقول :

وَجَالِسٍ لَيْسَ فِيهِ	قَطُّ مِثْلُ النَّاسِ حَسُّ
لِي مِنْهُ أَيْمَانُ كَذْ	ِبْتُ عَلَى رَغْمِي حَبْسُ
مَا لَهُ نَفْسٌ فَتْنَهَا	هَ ، وَهَلْ لِلصَّيْخِرِ نَفْسُ
إِنْ يَوْمًا فِيهِ أَلْقَا	هَ لَيَوْمٍ هُوَ نَحْسُ

ويقول :

رُبَّ ثَقِيلٍ لِبَغْضِ طَاعَتِهِ	أَخْشَاهُ حَتَّى كَأَنَّهُ أَجَلِي
وَكَلِمَا قُلْتُ لَا أَشَاهِدُهُ	أَلْقَاهُ حَتَّى كَأَنَّهُ عَمَلِي

ويقول :

يا ثَقِيلًا لِي مِنْ	رُؤْيَيْهِ هُمْ طَوِيلُ
وَبَغِيضًا هُوَ فِي الْحَلَا	بِقِي شَجِيٍّ لَيْسَ يَزُولُ
كُلُّ فَضْلٍ فِي الْوَرَى	أَضْعَافُهُ فِيكَ فَضُولُ
كَيْفَ لِي مِنْكَ خَلَاصٌ	أَيْنَ لِي مِنْكَ سَبِيلُ
حَارَ أَمْرِي فِيكَ حَتَّى	لَسْتُ أَدْرِي مَا أَقُولُ
أَنْتَ وَاللَّهِ ثَقِيلُ	أَنْتَ وَاللَّهِ ثَقِيلُ

ويقول :

والله لو لا خِيفَةُ الثَّقِيلِ	زُرْتُكَ فِي الضَّحَى فِي الْأَصِيلِ
لَكُنْ أَرَى التَّخْفِيفَ عَنْ خَلِيلِي	وَلَسْتُ فِي الْعِشْرَةِ بِالثَّقِيلِ

ويقول :

وِثْقِيلٍ مَا بَرَحْنَا	نَتَمَنَّى الْبَعْدَ عَنْهُ
غَابَ عَنَّا فَقَرِحْنَا	جَاءَنَا أَثْقَلُ مِنْهُ

والقارئ لذيوانه يشعرُ بإباء وعِزَّة لم تُلَنِّهما إلا صولة الفقر في عهد الشباب الأول لشاعرنا ، حينما كان يلتبس من الأمير اللطيف وغيره عوناً ، في طهجة تكاد تكون تذلاً لم يعرفه بعد ذلك شعرُ البهاء زهير

وإذ قد وصلنا الى شعر البهاء زهير فقد وصلنا الى الجانب المهم من بحثنا ، فإن البهاء زهيراً الشاعر المصري هو مدار حديثنا

لا البهاء زهيراً من حيث هو صاحب ديوان الإنشاء في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب .

ولقد كان الشعر العربي قد جمد في صورته وأساليبه وموضوعاته في القرون الأخيرة من العصر العباسي بتحكم الأعاجم في شؤون الدولة وقلة تشجيعهم للشعراء ، وبتوالي الفتن على الممالك الإسلامية ، ثم انتعش الشعر في وادي النيل مدة الفاطميين (٣٥٨ — ٥٧٦) الذين كان لهم باللغة العربية عناية عظيمة ، وفي عهد الأيوبيين (٥٧٦ — ٦٥٠) الذين راجت في عهدهم القصير فنون العلم والأدب وازدهرت المدنية .

وفي هذا العهد نشأ البهاء زهير ووسع شعره كل ما أنتجت مدينة ذلك العهد من ثمرات .

قال هيار في كتابه الأدب العربي :

” إن شعر بهاء الدين زهير المهامي كاتب السر في الدولة المصرية يجعلنا ندرك ما بلغه لسان العرب من المرونة والاستعداد للتعبير عن ألوف من دقائق العواطف التي صقلتها مدينة خلفاء صلاح الدين الزاهية “ .

وفي ترجمة ابن خلكان لبهاء زهير ما يدل على أن شعر بهاء الدين زهير كان مجموعاً في حياته متداولاً بأيدي الناس . قال ابن خلكان في تلك الترجمة :

” وشعره كله لطيف ، وهو كما يقال السهل الممتنع . وأجازني رواية ديوانه ، وهو كثير الوجود بأيدي الناس ... الخ “ .

وفي النسخ الخطية الموجودة بدار الكتب المصرية من هذا الديوان ما يدل على أن بعض تلامذته جمع شعره وزاد فيه على ما في ديوانه . ففي آخر صحيفة من نسخة خطية (رقعها) ٢٠٥١ (أذب) ما نصه :

” قال جامع هذا الديوان ، وهو تلميذ الشيخ : هذا آخر ما وجدت من شعر أبي الفضل زهير بن محمد بن علي المهلب رحمه الله وأثابه الجنة بمنه وكرمه “ .

وفي هذه النسخة مقدمة جاء فيها :

” كل ما كتب في هذا الديوان وقلت قال رحمه الله ، فإني كتبتُه بعد موته رحمه الله بدمشق المحروسة حماها الله تعالى في جمادى الأولى من شهر سنة سبع وستين وستمائة ولم أسمعه منه “ اهـ .

وتوجد نسخة خطية أخرى أولها :

” أقما بعد حمد الله على مزيد آلائه ، وشكره على ما تفضل به من جزيل جزائه “ وبعد كلام : ” أحببت أن أجمع ما وجدت من كلامه مستعيناً بالله “ . كتبت هذه النسخة سنة ١٠٠٢ وليس

فيها ما يدل على اسم جامعها إلا أن بآخرها : ”من نعم الله على العبد
الفقير محمد بن محمد اليماني“ . وورد في طبعة يلمر، التي سيأتي
ذكرها، ببعض الهوامش : ”إن الذي جمع ديوان بهاء الدين زهير
بعد وفاته هو شرف الدين ، وأن ذلك مذكور في نسخة حسنة
موجودة بمكتبة اكسفورد عليها اعتماد الطابع في التصحيح
وشرف الدين هذا هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي الوفاء بن
خطاب المعروف بابن الحلاوي الموصلي الأصل الدمشقي المولد
والدار .

وقد ذكر ابن خلدكان أن شرف الدين المذكور لقي البهاء زهيراً
في بلاد الشام ومدحه . وفي الديوان قصيدة أرسلها البهاء زهير
إلى شرف الدين تعزية له في أخيه سنة ٦٤١ هـ .

وقد طبع ديوان البهاء زهير منذ عهد قديم بمصر وأعيد طبعه
مراراً ، وطبع في بيروت وغيرها . وأول طبعته طبعة حجرية بمصر
سنة ١٢٧٧ هـ وتليها طبعة حجرية أخرى سنة ١٢٧٨ هـ بمصر .

وطبع هذا الديوان بكبرج سنة ١٨٧٦ في مجلدين : الأول
منهما فيه الديوان مع تعليقات وهوامش ، وفي أوله مقدمة تشتمل
على ما للشعر من منزلة سامية عند العرب ، وعلى ترجمة صاحب
الديوان . والثاني ترجمة للديوان بالانجليزية منظومة شعراً وعليها

شروح ، طبعه أدور هنرى بالمردرس اللغة العربية بمدرسة
كبرج الذى قتله بعض العرب ببادية طورسينا سنة ١٨٨٢ أثناء
الحوادث العرابية .

ويقول صاحب « اكتفاء القنوع بما هو مطبوع » : إن
ديوان البهاء زهير طبع أيضا فى باريس سنة ١٨٨٣ مع القراءات
المتنوعة للثن الأصل العربى .



كانت للشعر نهضة ، كما قلنا ، فى عهد الفاطميين فالأيوبيين ،
وبالبهاء زهير من أئمة النهضة الشعرية فى عصر بنى أيوب .

وعبقرية البهاء زهير فى هذه النهضة تتجلى من نواحى ثلاث :

(١) ناحية الأسلوب .

(٢) « الأوزان » .

(٣) « الموضوعات التى يتناولها الشعر » .

الناحية الأولى ناحية الأسلوب : كان عصر البهاء زهير من جهة
اللغة شبيها بعصرنا هذا ، ففيه لهجة يستخدمها الناس فى معاشهم
ومعاملاتهم ، ويعبرون بها عن أفكارهم وعواطفهم فى حياتهم
اليومية ، ولهم لهجة أخرى لا يلجئون إليها إلا إذا عالجوا النظم
أو حاولوا الإنشاء . كانت لغة الحياة فى شتى مظاهرها لغة ملحونة ،
ولكنها تسير الحياة فى حركتها وانتقالها ، وتصل بسهولة الى أفهام

العامة والخاصة . وكانت لغة الشعر والكتابة لغة مستقيمة الإعراب
تسامى عن التبذل للعامة ، وتحاول أن تتصل بأساليب الشعر القديم
والنثر القديم ، باعتبار تلك الأساليب قوالب ينبغي أن يصب فيها
شعر ما يتلو من العصور ونثره . ووجد من الشعراء والكتاب من
كان همه أن يزيد لغة القريض والإنشاء تعاليا على لغة العامة :
باختيار العبارات الجذلة القليلة الاستعمال البعيدة عن الابتذال ،
وبالتأني في تزيين الأساليب الشعرية والنثرية بالمحسنات البديعية
التي قد يكون لبعضها تقدير من الجهة الصناعية ، لكنها بعيدة عن
جمال البيان والوضوح .

أما البهاء زهير فجاء بمذهب جديد ، فجعل لغة الحياة الحسارية
في بساطتها ومرونتها لغة للشعر بعد تطبيقها على قواعد الإعراب
وتقويم ما فيها من اللحن جهد المستطاع ، وجرى على ذلك فيما كانت
تجيش به نفسه وتفيض به عواطفه من فنون الشعر .

وشعر البهاء زهير كما هو مرآة صادقة لعصره بما فيه من فيض
الطبع والبعد عن التكلف ، هو أيضا مرآة لعصره من حيث اللغة
والتعبير . والروح المصري يتجلى في هذا الشاعر القوصي الصعيدي
بأكثر مما يتجلى في أي شاعر مصري عرفناه في القديم
والحديث .

وللهاء زهير في بعض قصائده تشوق إلى الصعيد :

أَحِنُّ إِلَيْكُمْ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَأَهْدِي بَكُمْ فِي يَقْظَتِي وَمَنَامِي
فَلَا تُتَكْرُوا طَيْبَ النَّسِيمِ إِذَا سَرَى إِلَيْكُمْ فَذَلِكَ الطَّيِّبُ فِيهِ سَلَامِي
فَهَلْ عَائِدٌ مِنْكُمْ رَسُولِي بِفَرَحَةٍ كَفَرَحَةِ حَبْلِي بُشِّرْتِ بِغُلامِ
وَيَرْتاحُ قَلْبِي لِلصَّعِيدِ وَأَهْلِهِ وَعَيْشٍ مَضَى لِي عِنْدَكُمْ وَمُقَامِ
وَأَهْوَى وَرُودَ النَّيْلِ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ يَمُرُّ عَلَى قَوْمٍ لَدَى كَرَامِ

ويطول بنا القول لو أردنا أن نستقصى في شعر البهاء زهير
نفحات مصريته في التعبير والدوق ، ودلائل ديمقراطيته في اللغة
وان كان أرسنقراطى المنازع والأخلاق .

على أننا نذكر لذلك نماذج نُحِيلُ على ديوانه لاستيفائها .
ولا يفوتنا أن نشير إلى أن من نفحات المصرية في أسلوب البهاء زهير
كثرة الحلف في شعره ، فقلما تخلو قصيدة له من يمين ، حتى ليقول :
ووالله ما فارقتكم من ملالة ووالله ما أحتاج أني أحلف

* * *

لَعَلَّكُمْ قَدْ صَدَّكُمْ عَنْ زِيَارَتِي مَخَافَةُ أَمْوَاهِ لَدَمْعِي وَأَنْوَاءِ
فَلَوْ صَدَّقَ الْحُبُّ الَّذِي تَدَّعَوْنَهُ وَأَخَاصْتُمْ فِيهِ مَشَيْتُمْ عَلَى الْمَاءِ
وَإِنْ يَكُ أَنْفَاسِي خَشِيتُمْ لَهَيْبَهَا وَهَاتِكُمْ نِيرَانُ وَجْدٍ بِأَحْشَائِي
فَكُونُوا رَفَاعِيينَ فِي الْحُبِّ مَرَّةً وَخَوْضُوا لظَى نَارِ لَشَوْقِي حَرَّاءِ
حُرِّمْتُ رِضَاكُمْ إِنْ رَضِيتَ بغيركم أَوْ اعْتَضْتُ عَنْكُمْ فِي الْحَنَانِ بِحَوْرَاءِ

قلبي لديك فكيف أذ * * *
مت على البعاد وكيف قلبي ؟

فيا صاحبي مالي أراك مفكراً * * *
وحَتَّامَ ، قُلُّ لى ، لا تزال كئيباً

قال لى العاذل تسلو * * *
قلت للعاذل تتعب
أنا بالعاذل ألهو
ليس فى العشاق إلا
من يغنى لى وأشرب

أحدثه اذا غفل الرقيب * * *
وأطعم حين أعطفه عساه
ويخفق حين يبصره فؤادى
فيا مولاي قل لى أى ذنب
حبيب أنت قل لى أم عدو
وأسأله الجواب فلا يجيب
يأين لأنه غصن رطيب
ولا عجب اذا رقص الطروب
جنيت لعلى منه أتوب
ففعلك ليس يفعل له حبيب

أنا فيما أنا فيه * * *
أنا لا أضغى لما قا
يا حبيبي ونديى
هات فيما نحن فيه
وعذولى يتعب
ل فيرضى أو فيغضب
واللىالى تتقلب
ودع العاذل يتعب

أرى قوماً يليت بهم * * *
فمنهم من ينافقنى
نصيبى منهم نصيبى
فيكذب لى ويخلف لى

ويُنزِمُنِي بِتَصَدِيقِ الَّذِي قَدْ قَالَ مِنْ كَذِبٍ
 وَذُو عَجَبٍ إِذَا حَدَّثَ
 وَمَا يَدْرِي بِحَمْدِ اللَّهِ
 وَمَا أَبْصَرْتُ أَحْمَقَ مِنْهُ
 وَأَحْمَقَ قَدْ شَقِيتُ بِهِ
 فَلَا يَنْفُسُكَ يَتَّبِعُنِي
 كَأَنِّي قَدْ قَتَلْتُ لَهُ
 لِأَمْرِ مَا صَحِبْتُهُمْ
 يَحْسَنُ عَقْلُنَا أَنَا
 وَكَأَنَّ ظَنَّنَا الصُّفْ
 فَلَمْ نَظْفَرْ بِحَاجَتِنَا
 رَجَعْنَا مِثْلَ مَا رُحْنَا
 وَيُنزِمُنِي قَدْ قَالَ مِنْ كَذِبٍ
 مَا عَنْهُ جِئْتُ بِالْعَجَبِ
 مَا مَا شَعْبَانُ مِنْ رَجَبٍ
 مَا فِي عَجْمٍ وَلَا عَرَبٍ
 لَا عَقْلٍ وَلَا أَدَبٍ
 وَإِنْ أَمَعَنْتَ فِي الْحَرْبِ
 قَتِيلًا فَهُوَ فِي طَلَبِي
 فَلَا تَسْأَلْ عَنِ السَّبَبِ
 نَصِيدُ الْبَازِ بِالْحَرْبِ (١)
 رَعْنَدُ النِّقْدِ كَالذَّهَبِ (٢)
 وَأَشْفِينَا عَلَى الْعَطَبِ
 وَلَمْ نَرْجَحْ سِوَى التَّعَبِ

* * *

وَزَائِرَةٌ زَارَتْ وَقَدْ هَجَمَ الدَّجَا
 فِي رَاعِي إِلَّا رَخِيمٌ كَلَامُهَا
 فَقَبَاتٌ أَقْدَامًا لَغَيْرِي مَامَشَتْ
 وَكُنْتُ لِمِعَادٍ لَهَا مَتَرَقِبًا
 تَقُولُ حَبِيبِي قُلْتُ أَهْلًا وَمَرْحَبًا
 وَوَجْهًا مَصُونًا عَنْ سِوَايَ مُحَجَّبًا

(١) الحرب (بفتح الحين) : ذكر الحباري ، والحباري طائر معروف ، وهو على شكل الإوزة برأسه و بطنه غبرة ولون ظهره وجناحيه كالون السماني غالباً . وهو من الطيور الضعيفة ، ومن أمثالهم : ” ما رأينا صقرا يرصده خرب “ يضرب للشريف يحاول أن يقهره الوضع . (٢) الصفر : نوع من النحاس .

ولم ير عيني ليلةً مثلَ ليالي
سأشكر كلَّ الشكر إحسانَ محسنٍ
حبيب لأجلي قد تعني وزارني
فيا سهري فيها لقد كنت طيباً
تحيّل حتى زارني وتسبباً
وما قيمتي حتى مشى وتعذباً

✽ ✽ ✽

كم ذا التصاغر والتصايي
لم يبق فيك بقية
لا أفتضيك مودة
ما العيش إلا في الشبا
واقعد رأيتك في النقاب
وسألت عما تحته
وسمعت عنك قضية
هذا وكم من وقفة
واليوم قالوا حرة
وأردت أنطق بالحو
يا هذه ذهب الصبا
ما هذه شيم الحرا

✽ ✽ ✽

لا تطرح خاملاً الرجال فقد
فاليك في الرد وهو محقر
تحتاج يوماً إلى كفايته
خير من الشيش عند حاجته

(١) والبيت في طبعة بلهر هكذا :

فاللن في الرد وهو محقر

خير من اليس عند حاجته

* * *

يُعَاهِدُنِي لَا خَانِي ثُمَّ يَنْهَكُ
وَأَحْلَفُ لَا كَلِمَتُهُ ثُمَّ أَحْنَتْ
وَذَلِكَ دَأْبِي لَا يَزَالُ وَدَأْبُهُ
فِيهَا أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا وَتَحَدَّثُوا
أَقُولُ لَهُ صِلَانِي ، يَقُولُ نَعَمْ غَدًا
وَيَكْسِرُ جَفَنًا هَازِنًا بِي وَيَعْبَثُ
وَمَا ضَرَّ بَعْضَ النَّاسِ لَوْ كَانَ زَارِي
وَكُنَّا خُلُونَا سَاعَةً تَتَحَدَّثُ
أُمُولَايَ إِنِّي فِي هَوَاكَ مَعَذِبُ
وَحَتَّامٌ أَبْقَى فِي الْعَذَابِ وَأَمَكْتُ
نَخَذُ مَرَّةً رَوْحِي تُرْحِنِي وَلَمْ أَكُنْ
أَمُوتُ مَرَارًا فِي النَّهَارِ وَأُبْعَثُ

* * *

صَدِيقِي لِي سَأَذْكُرُهُ بِخَيْرٍ وَأَعْرِفُ كُنْهَ بَاطِنِهِ الْخَبِيثَا
وَحَاشَا السَّامِعِينَ يُقَالُ عَنْهُ وَبِاللَّهِ اكْتُمُوا هَذَا الْحَدِيثَا

* * *

مُولَايَ مِنْ سَكْرِ الدَّلَالِ عَيْشُ سِتِّ وَالسُّكَرَانِ عَابَثُ
وَنَكَشْتِ عَهْدًا فِي الْهَوَايِ مَا خِلْتُ أَنَّكَ فِيهِ نَاكِثُ
لَكَ لَا أَشُكُّ قَضِيَّةً أَنَا سَائِلٌ عَنْهَا وَبَاحِثُ

عَتَبَ الحَبِيبُ فلم أَجِدْ سَبباً لَذاكَ العَتَبِ حَدَثُ
والْيَوْمَ لِي يَرْجَانِ لم أَرَهُ وَهَذَا الْيَوْمَ ثَالِثُ
مَا كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّهُ مِنْ تَغْيَرِهِ الْحَوَادِثُ
وَيَلِدُ لِي العَتَبُ الَّذِي صَدَّقَ الْوَدَادِ عَلَيْهِ بَاعِثُ

وَعَائِدٍ هُوَ سَقَمٌ لِكُلِّ جَسَمٍ صَحِيحٍ
لَا بِالْإِشَارَةِ يَدْرِى وَلَا الْكَلَامَ الصَّرِيحُ
وَلَيْسَ يُخْرِجُ حَتَّى تَكَادُ تُخْرِجُ رُوحِي

وَعَادَةٌ بِوَصَالِهَا مُسَامِحَةٌ تَحْفَظُ وَدِّيَ مِثْلَ حَفِظِ الْفَاتِحَةِ
وَفَتْ بِوَعْدٍ ثُمَّ قَامَتْ رَائِحَةٌ فَيَا صَحَابِي فِي الْخَطُوبِ الْفَادِحَةِ
هَبْكُمْ رَجَمْتُ لِي نَفْسًا طَائِفَةً هَبْكُمْ أَعْنَتُمْ بِدُمُوعِ سَائِفَةِ
مَا تَفْعَلُ الشُّكْلَى بَنُوحِ النَّائِحَةِ

أَتَتَكَ وَإِنْ كَانَتْ كَثِيرًا تَأَخَّرَتْ فَإِنَّكَ تَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ وَتَصَفِّحُ

أَيُّهَا الْغَافِلُ الَّذِي لَيْسَ تُجَدِّى كَثْرَةُ اللَّوْمِ فِيهِ وَالتَّوْبِيحُ
إِنَّهَا غَفْلَةٌ لَكَ الْوَيْلُ مِنْهَا مَا رَوَاهَا الرِّوَاةُ فِي التَّارِيخِ
وَكَمَا قِيلَ هَبْ بِأَنَّكَ أَعْمَى كَيْفَ تَخْفَى رَوَائِحَ الْبَطِيخِ

وَحَيْثَمَا كُنْتَ كُنْتُ مُوَلَّى وَحَيْثَمَا كُنْتُ كُنْتُ عَبْدُكَ

* * *
ويا ليت عندي كل يوم رسولكم
فأسكنه عيني وأفرشه خدي
وإني لأرعاكم على كل حالة
وَحَقِّكُمْ أَتَمَّ أَعَزُّ الْوَرَى عِنْدِي
عليكم سلام الله والبعْدُ بيننا
وبالرغم مني أن أسلم من بعد

* * *
بحق الله متع
فما أشوقني منك
فما تصلح للهـزل
فما تصلح للجهـل
وماذا فيك من ثقل
وماذا فيك من برد
فلا صبحت بالخير
ولا مسيت بالسعد
فما أشوقني منك
فما تصلح للهـزل
فما تصلح للجهـل
وماذا فيك من ثقل
وماذا فيك من برد
فلا صبحت بالخير
ولا مسيت بالسعد

* * *
وليلة ما مثلها قط عهد
مثل حشا العاشق باتت تتقد
طلبت فيها مؤنسًا فلم أجد
بت أقاسيها وحيدًا منفرد
طالت فامًا صبحها فقد فقد
فتحبيل المرأة فيها وتلد

* * *
ووعدتني يوم الخـمـد
س فلا الخميس ولا الأحد
واذا اقتضيتك لم تزد
عن قول إى والله غد
فأعد أيامًا ثم
وقد ضجرت من العدد
وتقول أوصيت الخطي
ب فهل نفوه من البلد
واذا أتكت على الخطي
ب فما أتكت على أحد

تَوَقَّ الْأَذَى مِنْ كُلِّ نَخْلٍ وَسَاقِطٍ فِكْمٌ قَدْ تَأَذَّى بِالْأَرَاذِلِ سَيِّدُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّيْثَ تُؤْذِيهِ بَقَّةٌ وَيَأْخُذُ مِنْ حَدِّ الْمُهَنْدِ مِبْرَدُ

هذه أول حاجاتي اليك وبها أعيرف مقدارى لديك

سَيِّدِ قَلْبِي عِنْدَكَ سَيِّدِ قَلْبِي عِنْدَكَ
سَيِّدِ قَلْبِي لِي وَحْدَهُ نِي مَتَى تُتَجَزَّزَ وَعْدَكَ
أُتَرَى تَذَكُّرُ عَهْدِي مِثْلَ مَا أَذْكَرُ عَهْدَكَ
أَمْ تُتَرَى تَحْفَظُ وَدِّي مِثْلَ مَا أَحْفَظُ وَدَّكَ
قُمْ بِنَا إِنْ شِئْتَ عِنْدِي أَوْ أَكُنْ إِنْ شِئْتَ عِنْدَكَ
أَنَا فِي دَارِي وَحِيدِي فَتَفْضَّلْ أَنْتَ وَحْدَكَ

أَيْنَ مَوْلَايَ يَرَانِي وَدَمْعِي فَوْقَ خَدِّي

وَجَلِيسَ حَدِيثِهِ لِلْمَسْرَاتِ طَارِدُ
مِثْلُ لَيْلِ الشِّتَاءِ فَهْوَ وَثَقِيلُ وَبَارِدُ

فَلَا تُرْخَصُوا وَدًّا عَلَيْكُمْ عَرَضُهُ فَيَارِبْ مَعْرُوضٍ وَلَيْسَ بِكَاسِدِ
وَحَقُّكُمْ عِنْدِي لَهُ أَلْفُ طَالِبٍ وَأَلْفُ زُبُونٍ يَشْتَرِيهِ بَزَائِدِ
إِذَا كَانَ هَذَا فِي الْأَقَارِبِ فَعَلَّكُمْ فَمَاذَا الَّذِي أَبْقَيْتُمْ لِلْأَبَاعِدِ

* * *

وَدِدْتُ بِأَنِّي مَا رَأَيْتُ وَجُوهَكُمْ وَأَنَّ طَرِيقًا جِئْتُكُمْ مِنْهُ مَسْدُودٌ

* * *

حَدِّثُوا عَنْ طَوْلِ لَيْلٍ بِشَيْءٍ هَلْ رَأَيْتُمْ هَلْ سَمِعْتُمْ هَلْ عَهِدُ
لَا رِعَايَ اللَّهِ مَا أَطْوَلَهُ تَحَبَّلُ الْمَرْأَةُ فِيهِ وَتَلِدُ

* * *

لَنَا صَدِيقٌ سَيِّئٌ فَعَلَهُ لَوْ كَانَ فِي الدُّنْيَا لَهُ قِيَمَةٌ
لَيْسَ لَهُ فِي النَّاسِ مِنْ حَامِدٍ يَعْنَاهُ بِالنَّاقِصِ وَالزَّائِدِ

* * *

يَا غَادِرِينَ أَلَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ عَهْدٌ
ظَهَرْتُ وَبَأَنْتَ لِي قَضِيَّةٌ
وَحَلَفْتُمْ مَا خَنْتُمْ
يَا مَنْ تَبَدَّلَ فِي الْهَوَى
إِنْ كَانَ أُعْجِبُكَ الصَّدُودُ
وَأَعْلَمُ بِأَنِّي لَا أُرِيدُ
وَأَنَا الْقَرِيبُ فَإِنْ تَغَيَّرَ
يَوْمٌ أُخَلِّصُ فِيهِ قَلْبِي
وَعَسَاكَ تَطْلُبُ أَنْ أَعُدَّ
وَلَقَدْ عَلِمْتَ بِأَنِّي
بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ عَهْدٌ
تُكْمُ فَمَا هَذَا الْجُحُودُ؟
وَعَلَى خِيَانَتِكُمْ شَهُودُ
يَهْنِيكَ صَاحِبُكَ الْجَدِيدُ
كَذَاكَ أُعْجِبُنِي الصَّدُودُ
إِذَا رَأَيْتُكَ لَا تُرِيدُ
رَّصَاحِي فَأَنَا الْبَعِيدُ
بِي مِنْكَ ذَاكَ الْيَوْمَ عِيدُ
وَدَّ إِلَى هَوَاكَ فَمَا أَعُودُ
لِي فِي الْهَوَى خَلْقٌ شَدِيدُ

* * *

فإنني لك وحيدك	مولاي كن لي وحدي
فإن قلبي عندهك	وكن بقلبك عندي
لا خيب الله قصداك	لي فيك قصد جميل
ولممت أوتر بعدك	حاشاك تؤثر بعدي
والله لم أنس عهدك	إن تنس عهدي فاني
ما زال يحفظ ودك	أضعت ود محب
أدب كما شئت عبدك	مالي عليك اعتراض
وا سوء حالي بعدك	مولاي إن غبت عني

* * *

فمن سوء رأيك لاذا ولاذا	طلبت الجميع ففات الجميع
-------------------------	-------------------------

* * *

فلي ثلاث لم أرك	بالله قل لي خبرك
موثقي ما أخرك	يا أسبق الناس الى
بق لم يزل منتظرك	وناظري الى الطريد
مذ غبت عني معترك	بين جفوني والكري
هذا الذي قد غرك	كيف تغيرت ومن
قطعت عني خبرك	وكيف يا معذبي
لامك قلبي عذرك	ومن غرامي كلما
لك الضمان والدرك	والله ما خنت الهوى
نصبت عينيك شرك	وحق عينيك لقد

وحاسدٍ قال فما
أبقى لنا ولا ترك
ما زال يسعى جهده
يا ظيُّ حتى تفرك

* * *

نقد سرتنى هذا الذى
بى من ضنى إن كان سرك
إن كان ذلك عن رضا
ك وقد علمت به فأمرك
أو كان قصدك فى الهوى
قتلى يطيل الله عمرك
مولائى ما أحلاك فى
قتل المحب وما أمرك
ته كيف شئت من الجما
ل فاست أجهل فيه قدرك

* * *

أصبحت لا شغل ولا مزرعة
مذبذباً فى صفة خاسره
وجملة الأمر وتفصيله
أصبحت لا دنيا ولا آخرة

* * *

ويأتف الغدر قلبى وهو محترق
النار والله فى هذا ولا عار
وليلة الهجر إن طالت وإن قصرت
فؤسى أمل فيها وتذكر

وله فى رثاء

يا واحداً ما كان لى غيره
بعدك وإيلة أنصارى
يا منتهى سُؤلى ويا مُشتكى
حزنى ويا حافظ أسرارى

الدار من بعدك قد أصبحت
إن كنت قد أصبحت في جنة
في وحشة يا مؤنس الدار
إني من بعدك في نار

وقال يعاتب امرأة :

يا هذه لا تغلطي
خدعوك بالقول المحا
أظننت لي قلبا على
وسمعت عنك قضية
نقلت إلى جميعها
فمتي أردت شرحها
إن كنت أنت نسيتمها
وسألت عنك فلم أجد
وزعمت أنك حرة
فاذا كذبت فلا يكن
والله مالي فيك خاطر
لِ فصَحَّ أنكَ أم عامر
هذي الحماقة منك صابر
قد سَطَرْتُ فيها دفاتر
حتى كأنني كنت حاضر
لك بالدلائل والأماثر
فلكم لها في الناس ذاكر
لك في جميع الناس شاكر
ما هذه شيم الحسائر
كذبا لئكل الناس ظاهر

* * *

فإن مت في ذا الحب لست بأول
فقبلت مات العاشقون كثير

* * *

أنا مالي على الحفا
أنكرت مقاتي الكرى
فعمسى منك نظرة
لا ولا البعد مصطبّر
حين عرقتها السهر
ربما أقنع النظر

أيها المعرض الذي لا رسول ولا خبر
وجرى منه ما جرى
كل ذنب كرامة
ليتسه جاء وأعتذر
لحياتك مغتفر

* * *

قصرُوا عمرَ ذا الحفا
شرفوني بزورة
لو وصلتُم محبَّكم
ميت في الحب صبوة
طوّل الله عمرَكم
شرف الله قدرَكم
ما الذي كان ضرَّكم
أعظم الله أجركم

* * *

إني أدلّ لأنني
ضيف ومملوك وجار

* * *

ويا قمر الأفق عدّ راجعاً
ويا ليلتي هكذا هكذا
خلّونا وما بيننا ثالث
فقد بات في الروض عندي قمر
وبالله بالله قف يا سحر
فأصبح عند النسيم الخبر

* * *

أثرت الهوى ثم تبكى أسي
فمنك الرياح ومنك المطر

* * *

لي حبيب لا يسمى
آه لو أمكنني القو
لست أرضى لحبيبي
وحديث لا يفسر
ل لعلّي كنت أعذر
أنه للناس يذكّر

وهو معروف ولكن	هو معروف منك
هو ظي فإذا ما	سمته الوصل تتر
قترى دمي يجرى	ولساني يتعثر
سدي لا تطع ال	واشي وإن قال فإثر
لخدي غير ما قد	ظنه الواشي وقدر
إن ذنب الغدر في الحب	لذنب لا يكفر
طالت الشكوى ومل ال	سمع مما يتكور
وانقضى عمري وحالي	هو حالي ما تغير

* * *

أرحنى منك حتى لا	أرى منظرك الوعرا
فقد صرت أرى بعد	ك غنى الراحة الكبرى
فما تنفع في الدنيا	ولا تشفع في الأخرى

* * *

ليس يشفى ما بقلبي	منكم غير حضوري
إن خطب البعد عنكم	ليس بالخطب اليسير

* * *

وليس اعتادي إلا عليك	فلا تخلي من جميل النظر
----------------------	------------------------

* * *

يا روضة الحسن صلي	فما عليك ضير
فهل رأيت روضة	ليس بها زهير

* * *

وَصَاحِبٍ جَعَلَتْهُ أَمِيرِي	أَسْكَنْتَهُ فِي ذَاخِلِ الضَّمِيرِ
أَوْدَعَتْهُ الْخَفَى مِنْ أُمُورِي	فَكَانَ مِثْلَ النَّارِ فِي الْبَخُورِ
صَحْبَتُهُ وَلَمْ يَكُنْ نَظِيرِي	قَدَّمَتْهُ وَهُوَ يَرَى تَأْخِيرِي

* * *

وَيَوْمُ سُرُورِي يَوْمَ أَرَاكَ	لَأَتِي بِوَجْهِكَ أَسْتَبْشِرُ
----------------------------------	---------------------------------

* * *

وَتَرَانِي بِأَكْيَا مَكْتَبًا	وَتَرَاهُ ضَاحِكًا مُسْتَبْشِرًا
بَعْضُ مَا أَلْقَاهُ مِنْهُ أَنَّهُ	لَا يَزَالُ الدَّهْرَ بِي مُسْتَهْتِرًا
وَاقْتِضَاحِي فِيهِ مَا أَطْيَبُهُ	كَانَ مَا كَانَ وَيَدْرِي مَنْ دَرِي

* * *

أَوْحَشْتَنِي وَاللَّهِ يَا مَالِكِي	قَطَعْتَ يَوْمِي كُلَّهُ لَمْ أَرَكَ
--------------------------------------	--------------------------------------

* * *

وَأَحَقُّ ذِي لِحْيَةٍ	كَبِيرَةٍ مُنْتَشِرَةٍ
طَلَبْتُ فِيهَا وَجْهَهُ	بَشَادَةً فَلَمْ أَرَهُ
تَبًّا لَهَا مِنْ لِحْيَةٍ	كَبِيرَةٍ مُحْتَقِرَةٍ
مُضْحَكَةٍ مَا كَانَ قَطُّ	مِثْلَهَا لِمَسْخَرَةٍ
فَلَوْ مَضَى السُّوقَ بِهَا	وَزَفَّهَا بِالْمِزْمَرَةِ
لَحَصَلَتْ لَهُ مَغْدَلٌ	ضَّيْعَةٌ مُوَفَّرَةٌ

* * *
لكم عذرکم ، أأنتم سمعتم فقلتم ^و ومحتمل ما قد سمعتم وجائز

* * *
قالوا فلان قد غدا ثابثا ^و واليوم قد صلى مع الناس
قلت متى ذاك وأننى له وكيف ينسى لذة الكأس
أمس يهذى العين أبصرته سكران بين الورد والآس
ورحمت عن توبته سائلا وجدتها توبة إفلاس

* * *
يا مانعا حلوا الرضا وباذلا مر السخط
حاشاك أن ترضى بأن أموت في الحب غلط

* * *
يا كثير الجميل مثلك مولى يشتريني جميله ويبيع

* * *
ملأتم فؤادى فى الهوى فهو مترع ^و ولا كان قلب فى الهوى غير مترع
ولا عاذلى ينفك عني إصبعًا وقد وقعت فى رزة الحب إصبعي

* * *
أرى قصده أن يقطع الوصل بيننا
وقد سل سيف اللخط واللخط قاطع

فَإِن تَتَفَضَّلُ يَا رَسُولِي فَقُلْ لَهُ
 مَحَبَّتُكَ فِي ضَيْقٍ وَحُلُمُكَ وَاسِعٌ
 فَوَاللَّهِ مَا ابْتَلَيْتُ لِقَلْبِي غُلَّةً
 وَلَا نَشَفْتُ مِنِّي عَلَيْهِ الْمَدَامِعُ
 فَلَا تُنْكِرُوا مِنِّي خُضُوعًا عَلِمْتُمْ
 أَنَا أَنَا فِي شَيْءٍ سِوَى الْحُبِّ خَاضِعٌ

* * *
 فَوْقَ خَدَّيْهِ لَنَا وَرْدَةٌ فَوْقَ الصَّفْفَةِ

* * *
 وَلَيْتُ إِكْرَامًا لَهُ وَجْهَ الرَّسُولِ وَكَفِّهِ

* * *
 دَخَلْتُ مِصْرَ غَنِيًّا وَلَيْسَ حَالِي بِخَافِي
 عَشْرُونَ جِمْلَ حَرِيرٍ وَمِثْلُ ذَلِكَ نِصَافِ
 وَجْهَةٍ مِنْ لَالٍ وَجَوْهَرٍ شَفَافِ
 وَلِي مِمَالِكُ تُرْكٍ مِنْ الْمِلَاحِ النَّظَافِ
 فَرَحْتُ أَبْسُطَ كَفِّي وَبِالْجَزِيلِ أَكْفِي
 وَصَرْتُ أَجْمَعُ شَمْلِي بِسَالِفِ وَسَالِفِ
 وَلَا أَزَالُ أَوَانِي وَلَا أَزَالُ أَصَافِي
 فَصَارَ لِي حُرَفَاءُ كَانُوا تَمَامَ حِرَافِي

وكل يوم يَخْوَانُ
فَبِعْتُ كُلَّ شَيْءٍ
وَأَسْتَهْلِكُ الْبَيْعَ حَتَّى
صَرَفْتُ ذَاكَ جَمِيعًا
وَصَرْتُ فِيهَا فَقِيرًا
وَذَا خُرُوجِي مِنْهَا
مِنْ الْجِدَا وَالْخِرَافِ
مَعِيَ مِنَ الْأَصْنَافِ
طَرَّاحَتِي وَلِحَافِي
بِمَصْرَ قَبْلَ أَنْصِرَافِي
مِنْ ثَرَوَتِي وَعَفَافِي
جَوْعَانِ عُرْيَانِ حَافِي

* * *

سَأَلْتُ عَنْ وَجْدِي بِهَا وَصَبَابَتِي
وَكَاثُتُ تُسَمِّنِي أَخَاهَا تَعْمَلًا
فَقُلْتُ أَمَا يَكْفِيكَ مَوْتِي فِيكَ
فَقُلْتُ لَقَدْ أَفْسَدْتَ عَقْلَ أَخِيكَ

* * *

أَرْسَلْتُهُ فِي حَاجَةٍ
فَخَرِمْتُ حَسَنَ قَضَائِهَا
كَالْخَمْرِ يُرْسَلُ لِلْفُؤَا
كَالْمَاءِ هَيِّنَةُ الْمَسَاغِ
إِذَا لَمْ يَكُنْ حَسَنَ الْبَلَاغِ
دِ بِهَا وَتَصَعَّدُ لِلدَّمَاعِ

* * *

كَمْ أَلَاقِي مِنْكَ مَا لَا
وَعْيُونَ النَّاسِ تَسْتَحِ
لَعَنَ اللَّهُ طَرِيقًا
أَشْتَهِي لَأَقِيتَ حَيْنَكَ !
يَا وَيَا أَوْفَقَ عَيْنِكَ
جَمَعْتُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ

* * *

يَا هَاجِرِي يَحِقُّ لَكَ
وَيَا لِسَانَ الدَّمْعِ فِي
وَجَدْتَ غَيْرِي شَغْلَكَ
شَرَحَ الْهَوَى مَا أَطْوَلَكَ

يَا أَيُّهَا السَّائِلُ عَنِّي لَا تَسَلْ عَمَّنْ هَلَكَ
بِتُّ بِلَيْلٍ بَاتَهُ كُلُّ عَدُوِّي وَلَكَ

* * *

أَصْبَحَ عِنْدِي سَمَكَةٌ
أَرَدْتُ أَنْ أُحْضِرَهَا
تَجْعَلُهَا لِي يَحْيَى
وَكِسْرَةٌ مَدْرَمَةٌ
عَلَى سَبِيلِ الْبَرَكَةِ
عُ بَعْدَهَا مَحَرَكَةٌ

* * *

إِذَا كُنْتَ مَشْغُولًا وَذَا يَوْمُ جُمُعَةٍ
فَفِي أَيَّامٍ يَوْمٍ تَكُونُ بِلا شُغْلٍ

* * *

فَعَلْتُ مَا يَلْزَمُنِي
فَلَيْتَ غَيْرِي لَوْ فَعَلْتُ

* * *

وَكُنْتُ زَمَانًا لَا أَقُولُ فَعَلْتُ
لَعَمْرِي لَقَدْ عَاطَمُونِي عَلَيْكُمْ
سَيَنْدَمُ بَعْدِي مَنْ يُرِيدُ قَطِيعَتِي
وَلَكِنِّي مِنْ بَعْدِهَا سَأَقُولُ
وَإِنِّي إِذَا عَلِمْتُ فِي قَبُولِ
وَيَذْكُرُ قَوْلِي وَالزَّمَانُ طَوِيلُ

* * *

وَمَا عِيشُ الْغَرِيبِ بِلا عِيَالٍ
كَعِيشِ الْقَاطِنِينَ ذَوِي الْعِيَالِ

* * *

فَإِذَا جِئْتَ وَغَابَ الرَّسُّ طَرًّا لَا يَهْمُهُ

* * *

وَلَوْلَا احْتِقَارِي فِي الْهَوَى لَعَوَّاذِلِي
صَرَفْتُ لَهُمْ بَالِي وَمِثْلِي وَمِنْهُمْ

* * *

كَلِمَا قَلْتَ اسْتَرْحْنَا جَاءَنَا الشَّيْخُ الْإِمَامُ
فَاسْتَرَانَا كُلَّنَا مِنْهُ بِهِ انْقِبَاضٌ وَاحْتِشَامُ
فَهَوَّ فِي الْمَجْلِسِ فَدُمُ هَوَانًا فَهَوَّ فِي دَامُ
وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَالْشَّيْخُ خُثْقِيلٌ وَالسَّلَامُ

* * *

هُمْ عَالَمُوهُ فَصَارَ يَهْجُرُنِي رَبِّ خُذِ الْحَقَّ مِنْ مُعَلِّمِهِ

* * *

سَلَّمَ عَلَىَّ إِذَا مَرَرُ تَ فَلَا أَقْلَ مِنْ السَّلَامِ
الْعِدْرُ فِي كُلِّ الطَّبَا عَ فَلَا أَخْصُصُكَ بِالْمَلَامِ
مَا أَكْثَرَ الْعُدَّالَ فِي وَلَهَى عَلَيْكَ وَفِي غَرَامِي
هَبْنِي كَتَمْتُهُمْ هَوَا لَكَ كَيْفَ أَكْتَمْتُهُمْ سَقَامِي

* * *

يَا أَيُّهَا الْبَاذِلُ مَجْهُودَهُ فِي خِدْمَةٍ أَفَّ لَهَا خِدْمَةُ
إِلَى مَتَى فِي تَعَبٍ ضَائِعِ بَدُونَ هَذَا تَا كُلُّ اللَّقْمَةِ
تَشْقَى وَمَنْ تَشْقَى لَهُ غَافِلُ كَأَنَّكَ الرَّاغِصُ فِي الظُّلْمَةِ

* * *

بَرَحَ الْخَفَاءُ وَقَلَّتْهَا مَنَى إِلَيْكَ بَلَا أَحْتِشَامِ
لَمْ تَبْقَ فِيكَ بَقِيَّةُ لَا لِلْحَلَالِ وَلَا الْحَرَامِ

* * *

خَلَيْتُ كُلَّ النَّاسِ مَا خَلَاكُمْ وَقُلْتُ مَا بَلَى أَحَدٌ سِوَاكُمْ
وَأَنْتُمْ عَلَى مَا أَجْفَاكُمْ خُلِقَ خُلِقَ دَائِمًا أَرْعَاكُمْ
وَكُلُّ مَا أَسْخَطَنِي أَرْضَاكُمْ وَاللَّهِ لَا أَفْلَحَ مَنْ يَسْوَاكُمْ
وَبَعْدَ ذَلِكَ سَبْحَانَ مَنْ أَعْطَاكُمْ

* * *

مَنْ رَأَى يَرْقُ لِي ضَائِعًا فِي يَدَيْكُمْ
كَانَ مَا كَانَ بَيْنَنَا وَسَلَامٌ عَلَيْكُمْ

* * *

لَعَنَ اللَّهُ حَاجَةً أَلْجَأَتْنِي إِلَيْكُمْ
وَزَمَانًا أَحَالَانِي فِي أُمُورِي عَلَيْكُمْ
فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يُجَدِّدَ صَنِي مِنْ يَدَيْكُمْ

* * *

تَرْكَنِي يَا أَلْفَ مَوْ لَايَ بِأَلْفِ نِعْمَةٍ

* * *

كَمْ أَنْاسٍ أَظْهَرُوا الزُّهْدَ لَنَا فَتَجَافَوْا عَنْ حَلَالٍ وَحَرَامٍ
قَلَّلُوا الْأَكْلَ وَأَبَدُوا وَرَعًا وَأَجْتَهَادًا فِي صِيَامٍ وَقِيَامٍ
عَمَّ لَمَّا أَمَكْنَتْهُمْ فَرَصَةٌ أَكَلُوا أَكْلَ الْحَزَانِي فِي الظَّلَامِ

* * *

سَمِعَ النَّاسُ وَقَانَا وَافْتَضَحْنَا وَأَسْتَرْحْنَا
بِتُّ وَالْبَدْرُ نَدِيمِي فَفَعَلْنَا وَتَرْكْنَا

بات يدعونا التَّصَابِي	فَسَمِعْنَا وَأَطَعْنَا
وَجَعَلَنَاهُ يَقِينًا	بَعْدَ مَا قَدْ كَانَ ظَنًّا
شَكَرَ اللَّهُ لِمَنْ بَشَّ	رَ بِالْوَصْلِ وَهَنًا
لِي حَبِيبٍ لِي مِنْهُ	كُلُّ شَيْءٍ أَتَمَّنَى
فَهُوَ بِدَرٍّ يُجَلَّى	وَهُوَ غَضَبٌ يَتَثَنَّى
كَانَ غَضَبَانِ فَلَمَّا	أَنْ تَلَّاقَيْنَا أَصْطَلَحْنَا
يَتَجَنَّى وَلَعَمْرِي	حَقُّهُ أَنْ يَتَجَنَّى
جَمَعَ الْحَسَنَ وَفِيهِ	غَيْرَ ذَلِكَ الْحَسَنِ مَعْنَى
مَنْ لَهُ مِثْلُ حَبِيبِي	قَدْ حَوَى حَسَنًا وَحُسْنَى
هَاتِ حَدَّثْنِي وَقُلْ لِي	مَا عَلَى الْعَاذِلِ مِنَّا
نَحْنُ لَا نَسْأَلُ عَنْهُ	مَا لَهُ يَسْأَلُ عَنْنَا

* * *

مَحَبَّتِي تُوجِبُ إِذْلَالِي	وَأَنْتَ ذُو فَضْلٍ وَإِفْضَالِ
وَبَيْنَنَا مَنْ سَالَفَ الْوُدَّ مَا	يُوجِبُ أَنْ تَسْأَلَ عَنِ حَالِي
فَاَجْعَلْ عَلَيَّ بِالْكَ شُغْلِي كَمَا	شُكْرُكَ لَا يَبْرَحُ عَنِ بَالِي

* * *

لَكَ يَا صَدِيقِي بَغْلَةٌ	لَيْسَتْ تُسَاوِي خَرْدَلَهُ
تَمْشِي فَتَحْسِبُهَا الْعِيُو	نُ عَلَى الطَّرِيقِ مُشْكَلَهُ

وَنُحَالٌ مُدْبِرَةٌ إِذَا مَا أَقْبَاتُ مُسْتَعْجِلَةً
مَقْدَارُ خُطُوتِهَا الطَّوِيلَةُ حِينَ تُسْرِعُ أَنْعَمَلَهُ
تَهْتَرُ وَهِيَ مَكَانَهَا فَكَأَنَّمَا هِيَ زَلْزَلَةٌ
أَشْبَهَتْهَا بَلْ أَشْبَهَتْكَ كَأَنَّ بَيْنَكُمَا صِلَةٌ
تُحْكِي صِفَاتِكَ فِي الثَّقَا لَةً وَالْمَهَانَةَ وَالْبَلَاءَ

* * *

فَلَيْتَ شَعْرِي مَتَى تَخْلُو وَتُنْصِتُ لِي
حَتَّى أَقُولَ فَقُلْبِي مِنْكَ مَلَانُ
إِيَّاكَ يَدْرِي حَدِيثًا بَيْنَنَا أَحَدٌ
فَهُمْ يَقُولُونَ : لِلْخَيْطَانِ آذَانُ
مَنْ لِي بِنَوْمِي أَشْكُو ذَا السَّهَادَةِ لَهُ
فَهُمْ يَقُولُونَ : إِنْ النُّومَ سُلْطَانُ
أَسْتَخْدِمُ الرِّيحَ فِي حَمْلِ السَّلَامِ لَكُمْ
كَأَنَّمَا أَنَا فِي عَصْرِى سُلَيْمَانُ

* * *

تُجَدِّدُ صَبُوءَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ
وَتُسَكِّرُ سَكْرَةً مِنْ كُلِّ دُنْ
أَقُولُ الْحَقُّ مَالِكٌ مِنْ صَدِيقٍ
فَلَا تَعْتَبْ عَلَيَّ وَلَا تَلْمِزْنِي

نَصَحْتُكَ أَوْ صَحَّوتَ قَبِلْتَ نَصِيحِي
وَلَكِنْ أَنْتَ فِي سَبْكِ التَّجَنِّي
وَمَنْ سَمِعَ الْغِنَاءَ بَغْمِيرَ قَابٍ
وَلَمْ يَطْرُبْ فَلَا يَلِمُ الْمَغْنَى
مُرَادِي لَوْ خَبَأْتُكَ يَا حَبِيبِي
مَكَانَ النُّورِ مِنْ عَيْنِي وَجَفْنِي

* * *

لَسْتُ أَصْغِي وَلَا أَعْي خَائِي مِنْكَ خَائِي

* * *

إِنَّ الْمَلِيحَ مَلِيحٌ يُحِبُّ فِي كَلِّ لَوْنٍ

* * *

نَرَأَيْكُمْ قَدْ بَدَأَ مِنْكُمْ	أُمُورٌ مَا عَهْدُنَاهَا
كَشَفْتُمْ بَيْنَنَا أَشْيَا	عَاقِدًا كُنَّا سَتَرْنَاهَا
وَكَمْ جَاءَتْ لَنَا عَنْكُمْ	أَحَادِيثُ رَدَدْنَاهَا
وَأَشْيَاءَ رَأَيْنَاهَا	وَقُلْنَا مَا رَأَيْنَاهَا
وَمَا زِلْتُمْ بِنَا حَتَّى	جَسَرْنَا وَفَعَلْنَاهَا
وَكُنْتَ بَيْنَنَا طَائِفٌ	فَهَا نَحْنُ سَدَدْنَاهَا

* * *

سَيِّدِي يَوْمُكَ هَذَا	لَيْسَ يَخْفَى عَنْكَ رَسْمُهُ
قَمِ بِنَا قَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ	رُ وَقَدْ أَشْرَقَ نَجْمُهُ
عِنْدَنَا وَرَدَ جَنِيٌّ	يُنْعَشُ الْمَيِّتَ شَيْئُهُ
وَلَدَيْنَا ذَلِكَ الضَّيِّقُ	يُفُ الَّذِي عِنْدَكَ عَلَمُهُ
وَلَنَا سَاقٍ رَشِيقٌ	أَحْوَرُ الظَّرْفِ أَحْمَرُهُ
وَوِخْوَانٌ يَعْبَقُ الْمَسَاحِقُ	بِكَ بَرِيَاهُ وَطَعْمُهُ
وَأَخٌ يَرْضِيكَ مِنْهُ	فَضْلُهُ الْجَمُّ وَفَهْمُهُ
كَامِلُ الظَّرْفِ أَدِيبٌ	شَاخِ الْأَنْفِ أَشْمُهُ
حَسَنُ الْعِشْرَةِ لَا يَأْخُذُ	تِيكَ مِنْهُ مَا تَذْمُهُ
وَمَغْنَمُ زِيرِهِ أَطْرُفٌ	بِ مَسْمُوعٍ وَبِمَهْمَةٍ
وَمُرُورٌ لَيْسَ شَيْءٌ	غَيْرُ رُؤْيَاكَ يَتِمُّهُ
فَأَجِبْ دَعْوَةَ دَاعٍ	أَنْتَ مِنْ دُنْيَاهُ مَهْمُهُ
فَإِذَا جِئْتَ وَغَابَ النَّاسُ	سَ طَرًّا لَا يَهْمُهُ

* * *

مَنْ الْيَوْمَ تَعَارَفْنَا	وَنَظَّوِي مَا جَرَى مِنَّا
وَلَا كَانَ وَلَا صَارَ	وَلَا قَلْتُمْ وَلَا قَلْنَا
وَإِنْ كَانَ وَلَا نَدَى	مَنْ الْعَتَبُ فَبِالْحُسْنَى
فَقَدْ قِيلَ لَنَا عَنْكُمْ	كَمَا قِيلَ لَكُمْ عَنَّا

كفى ما كان من هجر
وقد ذُقم وقد ذُفنا
وما أحسن أن نرجع
عَ للوصلِ كما كنا

* * *

لا تلمني أو فامني
فيك ظلم وتجني
لا تسابقي لعتب
ما بدا تخلص مني
لا تقل إني وإني
ليس هذا القول يغني
أنا لا أسأل عمن
لم يكن يسأل عني
إن تزرني فهذا الشـ
رط أو لا لا تزرني
فأستريح بالله من
هذا التَّجني وأرحني

* * *

يا كتابا من حبيب
أنا مشتاق إليه
جاءني منه سلام
سلم الله عليه

* * *

يا رسولی قبل الأرم
ض اذا جئت إليه
ثم عرفه بأني
كنت غضبان عليه

وفي طبعة يامر :

إن الرضي الذي بُليت به
أفعاله الكل غير مرضي
وكنْتُ في شدة برؤيته
كسليم في إسمار ذمي
وبعد جهاد خلصت من يده
خلاص عظيم من كف تركي

* * *

مضى الشبابُ وولَّى ما آتتْ فَعْتُ بِهِ
 وليته فارطٌ يُرجى تَلا فيه
 أوليت لي عملاً فيه أُسْر به
 أوليتني لا جرى لي ما جرى فيه
 وأحسرتاه لعمري ضاع أكره
 والويلُ إن كان باقيه كاضيه
 من مثل قلبي أو من مثل ساكنيه
 الله يحفظ قلبي والذي فيه

* * *

مولاى يا قلبى العزيز	زوايا حياتى الغالية
إنى لأطلبُ حاجةً	ليست غايك بخافية
أنعم على يقبله	هبةً وإلا عاريه
وأعيدها لك لا عدم	ت - بعينها وكاهيه
واذا أردت زيادةً	خُذها ونفسي راضيه
فعسى يجود لنا الزما	نُ بخُلوةٍ فى زاويه
أوليتنى ألقاك وحد	مدك فى طريق خاليه

* * *

قالوا كبرت عن الصبا	وقطعت تلك الناحيه
فدع الصبا لرجال	وأخلع ثياب العاريه

وَنَعَمْ كَثُرْتُ وَأَمَّا
وَيَفُوحُ مِنْ عِطْفَى أَنْفَا
وَيَمِيلُ بِي نَحْوَ الصَّبَا
فِيهِ مِنَ الطَّرَبِ الْقَدِيرِ
تلك الشَّمائلُ باقية
سُ الشَّبابِ كجَاهِيهِ
قلب رقيقُ الحَاشِيهِ
بِم بَقِيَّةٍ فِي زَاوِيهِ

* * *

لو تَرَانِي وَحَبِيبِي عِنْدَ مَا
وَمَضَى يَعْصِدُو وَأَعْدُو خَلْفَهُ
قَالَ : مَا تَرْجِعُ عَنِّي ؟ قُلْتُ لَا
فَأَنْتَنِي يَحْمِزُ مِنِّي نَحْجَلًا
كَدْتُ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ أَنْتَهُ
فَرَّ مِثْلَ الظَّبْيِ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ
وَتَرَانَا قَدْ طَوَيْنَا الْأَرْضَ صَلَى
قَالَ : مَا تَطْلُبُ مِنِّي ؟ قُلْتُ شَيْ
وَشَاهَ التَّيَّةُ عَنِّي لَا إِلَى
آهٍ لَوْ أَفْعَلُ مَا كَانَتْ عَلَى

* * *

يَا أَعَزَّ النَّاسِ عِنْدِي وَعَلَى
مَا لَهُ أَصْبَحَ عَنِّي مَعْرِضًا
يَا حَبِيبِي أَيْنَ مَا أَعْهَدُهُ
فَأَتَنِي إِذْ مَرَّ مَا كَلَمْتُهُ
أَنَا مَنْ قَدْ مِتُّ فِي الْعَشَقِ بِهِ
وَحَبِيبًا هُوَ مِنِّي وَالِي
تَحْتَ ذَا الْإِعْرَاضِ مِنْ مَوْلَايَ شَيْ
يَا تُرَى مِنْ ذَا الَّذِي زَادَ عَلَى
كَدْتُ أَنْ آكُلَ مِنْ غِيْظِ يَدَيَّ
هَنْتُونِي ، مَيِّتُ الْعُشَّاقِ حَى

فِي هَذِهِ الْأَشْعَارِ وَكَثِيرٍ غَيْرِهَا مِمَّا يُوجَدُ فِي دِيْوَانِ الْبَهَاءِ زَهِيرِ
عِبَارَاتٍ وَأَسَالِيبٍ مُضِرِّتِيهَا أَكْثَرُ مِنْ عَرَبِيَّتِهَا، وَالشُّعْرَاءُ يَتَأَبَّوْنَ أَنْ
يَسْتَعْمِلُوهَا مِنْذُ الْقَدَمِ وَحَتَّى فِي هَذِهِ الْعَصُورِ ، وَيَعْدُونَ ذَلِكَ تَبَدُّلاً

وضعفا وإخلا لا بجمال الشعر وجمال البيان ، ويؤثرون لغة الشعر
في عصور العربية الراقية ، حتى لا تكاد تفرق من جهة اللغة بين
الشعر الراقى في مختلف العصور . ولست تجد شاعرا من المحدثين
في أى عصر حتى الآن يرضى أن يستعمل في شعره كلمة اليك
والشيش ، ولا أن يقول :

لست أصغى ولا أعى خلتى منك خلتى

ولا أن يقول :

سمع الناس وقلنا وافترضنا واسترحنا

أستغفر الله ! هم لا يريدون ذلك ، بل ولا يقدرُونَ عليه ، فانما
هو السهل الممتنع . كما يقول ابن خلكان . ولا بد من عبقرية كعبقرية
البهاء زهير لتوفق هذا التوفيق في إنشاء أشعار من الطراز الأول ،
يطرب لها الخاصة ولا تكون العامة أقل بها طربا ، بلسان هو لسان
التحاور ولسان البيوت والأسواق .

• لم يكن البهاء زهير عاجزا عن مجارة غيره من الشعراء المترممين
في تحيُّر الألفاظ العربية ، المتأنِّقين في تزيينها بالمحسنات ، فقد كان
رجلا عالما درسا الأدب والدين ، وعرف من أخبار العرب الجاهلية
والإسلامية ما ينم عليه شعره ، إذ يُشير إلى الحوادث ويذكر أسماء
كثيرين من الشعراء وغير الشعراء . واختياره لكتابة السر في عهد

الأيوبيين دليل على منزلته من الرياسة العلمية والأدبية في ذلك العصر .

بل البهاء زهير قد سلك مسلك غيره من الشعراء في تعبيراتهم وتفكيراتهم في مدائحهم . ومدائح البهاء زهير، في غالبها، دون سائر فنونه الشعرية طرافة وإبداعاً، مع أنه شاعر القصير في عهد الأيوبيين، كما يقول هيار . ومن أمثلة هذه المدائح :

لَكَ اللَّهُ مِنْ وَالٍ وَلِيٍّ مَقَرَّبٍ	فَكَمْ لَكَ مِنْ يَوْمٍ أَغْرَى مُحِبِّ
حَلَّاتٍ مِنَ الْمَجْدِ الْمُنْعِ فِي الْوَرَى	بَارْفَعٍ بَيْتٍ فِي الْعَلَاءِ مُطَنَّبٍ
يَقْصُرُ عَنْ أَمْثَالِهِ كُلُّ قَيْصِرٍ	وَيَغَابُ عَنْ أَمْثَالِهِ كُلُّ أَغْلِبٍ
جَوَادٌ مَتَى تَحُلُّ بِوَادِيهِ تَأَقُّه	كَمَا قِيلَ فِي آلِ الْجَوَادِ الْمُهَلَّبِ
أَحَقُّ بِمَا قَالَ ابْنُ قَيْسٍ لِمَالِكٍ	وَأَوْلَى بِمَا قَالَ ابْنُ أَوْسٍ لِمُصْعَبٍ
وَلَوْ شَهِدَ الْعِجْلُ جَدَّوَاهُ مَا انْتَمَى	لِعِكْرِمَةَ الْفَيَّاضِ يَوْمًا وَخَوْشَبِ

ومن قصيدة له بمدح بها السلطان الملك الناصر يوسف بن محمد بن عادى بن يوسف بن أيوب :

وَمَذْ كُنْتُ لَمْ تَرْضَ النَّقِيصَةَ شِمْتِي
وَمِثْلُكَ يَا بَاهَا لِمِثْلِي وَيَأْنِفُ
وَلَا أَبْتَغِي إِلَّا إِقَامَةَ حُرْمَتِي
وَأَسْتُ لَشَيْءٍ غَيْرِهَا أَتَأْسَفُ

ونفسي بحمد الله نفس أبيّة
فها هي لا تهفو ولا تتأهف
ولكن أطفالا صغارا ونسوة
ولا أحد غيري بهم يتألف
أغار إذا هبّ النسيم عليهم
وقلبي لهم من رحمة يترجف
سروري أن يبدو عليهم تنعم
وحزني أن يبدو عليهم تقشف
ذخرت لهم لطف الإله ويوسف
ووالله لاضاعوا ويوسف يوسف
أكلّف شعري حين أشكو مشقة
كأنّي أدعوه لما ليس يؤلف
وقد كان معتادا لكل تغزل
تسيم به الألباب حسنا وتشف
يلوح عليه في التغزل رونق
ويظهر في الشكوى عليه تكلف
وما زال شعري فيه للروح راحة
وللقلب مسلاة وللهم مصرف

يُنَاغِيكَ فِيهِ الْظُّبَى وَالظُّبَى أَحْوَرُ
وَيُلْهِيكُ فِيهِ الْغَصَنُ وَالْغَصَنُ أَهْيَفُ
شَكَوْتُ وَمَا الشُّكْوَى إِلَيْكَ مَذَلَّةُ
وإِنْ كُنْتُ فِيهَا دَائِمًا أَتَانَفُ

وله قصيدة في مدح الأمير النصير المظفر، أولها :

صَفَحًا لِهَذَا الدَّهْرِ عَنْ هَفَوَاتِهِ إِذَا كَانَ هَذَا الْيَوْمُ مِنْ حَسَنَاتِهِ
يَوْمٌ يَسْطُرُ فِي الْكِتَابِ مَكَانُهُ كَمَا كَانَ بِأَسْمِ اللَّهِ فِي خَتَمَاتِهِ
ومنها :

يَا مُعْجَزَ الْأَيَّامِ قَرَعَ صَفَاتِهِ وَجَمَلَ الدُّنْيَا بِحَسَنِ صِفَاتِهِ
قَوْمُ هُمُ فِي الْبَيْدِ خَيْرُ سُرَاتِهَا حَسِبًا وَهُمْ فِي الدَّهْرِ خَيْرُ سُرَاتِهِ
شُرَفُ الزَّمَانِ بِكُلِّ نَدْبٍ مِنْهُمْ مُتَقِظٌ وَهَبَ الْعُلَا غَفَلَاتِهِ
يَا مَنْسِكَ الْمَعْرُوفِ أَحْرَمَ مَنْطِقِي زَمَنًا وَقَدْ لَبَّاکَ مِنْ مِيقَاتِهِ
هَذَا زَهْرُكَ لَا زَهْرٌ مَزِينَةٌ وَافَاكَ لَا هَرِمًا عَلَى عِلَّاتِهِ
دَعَا وَحَوْلِيَّاتِهِ ثُمَّ اسْتَمَعَ لَزَهْرِ عَصْرِكَ حَسَنَ لَيْلِيَّاتِهِ
لَوْ أَنْشِدْتُ فِي آلِ جَفْنَةٍ أَضْرَبُوا عَنْ ذِكْرِ حَسَانٍ وَعَنْ جَفْنَاتِهِ

ومن ذلك قوله في مدح الملك الكامل ناصر الدين أبي الفتح

محمد بن الملك العادل وذكر انتزاعه ثغر دمياط من الإفرنج :

بِكَ أَهْتَرَّ عَطْفُ الدِّينِ فِي حُلِّ النَّصِيرِ
وَرُدَّتْ عَلَى أَعْقَابِهَا مِلَّةُ الْكَفْرِ

وليلة غزوة للعدو كأنها
بكثرة من أرديته ليلة النحر
فيا ليلة قد شرف الله قدرها
ولا غرو أن سميها ليلة القدر
سددت سبيل البر والبحر عنهم
بساجدة دهم وسانحة غر
أساطيل ليست في أساطير من مضى
بكل غراب راح أفتك من صقر
وجيش كمثل الليل هولا وهيبة
وإن زانه ما فيه من أنجم زهر
وكل جواد لم يكن قط مثله
لآل زهير لا ولا لبني بدر
وبات جنود الله فوق ضوامي
بأوضحها تغني السراة عن الفجر
فلا زلت حتى أيد الله حزبه
وأشرق وجه الأرض جدلان بالنصر
كفى الله دمياط المكاره، إنها
لمن قبلة الإسلام في موضع النحر

وما طاب ماء النيل إلا لأنه
يحل محل الرقيق من ذلك الثغر

ومن قصيدة يمدح بها علاء الدين على بن الأمير شجاع الدين
جلدك :

فيا ظيُّ هَلَّا كان منك التفاتة
ويا غصنُ هَلَّا كان فيك تعطف
ويا حرمَ الحسن الذي هو آمن
وألبابنا من حوله نتخطف
عسى عطفةً للوصل يا واصل
على فإني أعرف الواو تعطف

ومن قصائده في مدح السلطان الملك الصالح نجم الدين
أيوب ، وذلك في سنة ٦٢٢ هـ في طبعة يلمر ، ولعلها أولى قصائده
في مدحه حين جاء من قوص الى القاهرة واتصل به ، :

وعدّ الزيارة طرفه المتملق
وتلاف قلبي من جفون تنطق
إني لأهوى الحسن حيث وجدته
وأهيم بالقدر الشيق وأعشق

وبليتى كَفَلٌ عليه ذُؤَابَةٌ
مثل الكثيب عليه صَلٌ مُطَرِقُ
إِنْ عَنَّفُوا ، إِنْ سَوَّفُوا ، إِنْ خَوَّفُوا
لا أنثنى ، لا أنتهى ، لا أفرق
ويزيدنى تَلَفًا فأشكرُ فضله
كالمسك تَسَحُّقُهُ الأكُفُ فيعبقُ
ولقد سَعَيْتُ إلى العَلَاءِ بهمةٍ
تَقْضِي لِسَعْيِ أَنَّهُ لَا يُخْفِقُ
وسريتُ في لَيْلٍ كَأَنَّ نَجُومَهُ
مِنْ فَرِطٍ غَيْرَتَهَا إِلَى تَحْدِيقِ
حَتَّى وَصَلْتُ سُرَادِقَ الْمَلِكِ الَّذِي
تَقِفُ الْمُلُوكُ بِبَابِهِ تَسْتَرْزِقُ
فإليكَ يَا نَجْمَ السَّمَاءِ فَإِنِّى
قَدْ لَاحَ نَجْمُ الدِّينِ لِي يَتَأَلَّقُ
الصَّالِحُ الْمَلِكُ الَّذِي لَزَمَانُهُ
حَسَنٌ يَتِيهِ بِهِ الزَّمَانُ وَرَوْنَقُ
مِلَأُ الْقُلُوبَ مَخَافَةً وَمَحَبَّةً
فَالْبَاسُ يُرْهَبُ وَالْمَكَارِمُ تَعْشَقُ

فَعَدَلْتُ حَقِّي مَا بَهَا مُتَظَلِّمٌ
وَأَنْلَتُ حَقِّي مَا بَهَا مُسْتَرْزَقُ
يَا مَنْ رَفَضْتُ النَّاسَ حِينَ لِقِيَّتُهُ
حَتَّى ظَنَنْتُ بِأَنَّهُمْ لَمْ يُخَالِقُوا
قَيَّدْتُ فِي مَصِيرِ إِلَيْكَ رُكَّائِي
غَيْرِي يُغَرِّبُ تَارَةً وَيُسَرِّقُ
وَحَلَلْتُ عِنْدَكَ إِذْ حَلَلْتُ بِمَعْقِلِ
يُلْقِي إِلَيْهِ مَارِدٌ وَالْأَبْلَقُ
وَتَيَقَّنُ الْأَقْوَامُ أَنِّي بَعْدَهَا
أَبَدًا إِلَى رُتَبِ الْعَالَا لَا أُسْبِقُ
فُرَزِقْتُ مَا لَمْ يُرْزَقُوا وَنَطَقْتُ مَا
لَمْ يَنْطِقُوا وَلَحِقْتُ مَا لَمْ يَلْحَقُوا

وقال يمدح الملك الناصر صلاح الدين بن الملك العزيز محمد :
عَرَفَ الْحَبِيبُ مَكَانَهُ فَتَدَلَّلَا
وَأَتَى الرَّسُولَ فَلَمْ أَجِدْ فِي وَجْهِهِ
فَقَطَعْتُ يَوْمِي كُلَّهُ مُتَفَكِّرًا
وَأَخَذْتُ أَحْسَبُ كُلِّ شَيْءٍ لَمْ يَكُنْ
فَلَعَلَّ طَيْفًا زَارَ مِنْهُ فَرَدَّه
وَعَسَى نَسِيمٌ يَتُّ أَكْتَمُ سِرَّنَا
وَقَنِعْتُ مِنْهُ بِمَوْعِدٍ فَتَعَلَّلَا
نُشْرًا كَمَا قَدْ كُنْتُ أَعْهَدُ أَوْلَا
وَسَمِرْتُ لَيْلِي كُلَّهُ مُتَمَلِّلًا
مُتَحَرِّكًا فِي فِكْرَتِي مُتَخَيِّلًا
سَمَرِي فَعَادَ بَغِيْظُهُ فَتَقَبَّلَا
عَنْهُ فَرَّاحٌ يَقُولُ عَنِّي قَدْ سَلَا

ولقد خَشِيتُ بأن يكون أُمالهُ غيرى ، وطبعُ الغصنِ أن يَتَمَيَّلَا
وأظنّه طلبَ الحديدِ وطالما عتقَ القميصُ على أمرى فتبدَّلَا
أهوى التذللَ في الغرامِ وإنما يأبى صلاحُ الدين أن أتدَلَّلَا
مهَّدتُ بالغزلِ الرقيقِ لمدحه وأردتُ قبلَ الفَرَضِ أن أتَنفَّلَا
يا مَنْ مديحى فيه صدقُ كلِّه فكأنّما أتلو كتاباً مُنزَلَا
يا مَنْ ولأئى فيه نصٌّ بين والنصُّ عند القومِ لن يُتأوَّلَا

ولعل البهاء زهيرا كان يشعر بما يكتنف مذهبَه الحديدَ في الشعر من تنقيص خصوصيه ، ومن ضعف الأذواق التى أفسدها التكلف عن تذوقه ، لذلك كان يسلك فى الشعر الرسمى شعر المديح ، المذهب القديم غالباً ، ويظهر عليه ، فى كثير من الأحيان ، أنه يحاول غير ما فى طبعه ، حتى اذا هتفت بالشعر عواطفه ، عاد الى مذهب السهل البسيط الخالى من التصنع القريب من الفطر .

ولمذهب البهاء زهير خصومٌ نجد صدى أحكامهم فى قول صاحب كتاب « مرآة الجنان وعبرة اليقظان » لليافعى اليمنى المتوفى سنة ٧٦٨ :

« قال ابن خلكان : وكل شعره لطيف ، وذكر شيئاً منه فى تاريخه ، ولكن للاختصار والتخفيف لم أكتب شيئاً منه ولا أعجبنى ولا قوى عزمى الضعيف »

لكن لمذهب البهاء زهير مریدون كثيرون يرون شعره لطيفاً
من السهل المتنوع، كما نقلنا عن ابن خلدكان .

ويرى بلمر، في مقدمته لديوان شاعرنا، أن عصر البهاء زهير
كان أكثر العصور صلةً بين الثقافة العربية وثقافة الغرب، بسبب
الحروب الصليبية وما تبعها من استقرار مملكة غربية في فلسطين
زمانا . ويقول : إن شعر البهاء زهير يشابه الشعر الأوربي، وأكثر
أفكاره ثُمحاذى أفكار الشعراء الانجليز في القرن السابع عشر .

ب -

ب - الناحية الثانية من نواحي عبقرية البهاء زهير في النهضة
الشعرية - ناحية الأوزان .

أسلفنا أنه كانت في عهد البهاء زهير أنتشرت أوزانُ
التوشيح الآتية من الأندلس، وذلك لا بد أن يكون نبه الشعراء
الى فن من الألحان الشعرية جديد، فأهتدت الفطر الموسيقية
الى اختيار البحور اللطيفة والأوزان الموفرة الحظ من الموسيقى
ومن التأثير . وهذا شأن البهاء زهير، فإننا نجد في غير شعر المديح
قلما يركن الى غير الأوزان الخفيفة . يقول :

هو حظى قد عرفتُه لم يحل عما عهدتُه .
فإذا قصر من أه واه في الود عذرتُه

غير أني لي في الحبَّ طريقٌ قد سلكته
لو أراد البعد عني نور عيني ما تبعته
إن قلبي وهو قلبي لو تجنني ما تحبته
كل شيء من حبيبي ما خلا الغدر احتملته
أنا في الحب غيور ذاك خلقي لأعدمته

* * *

وقال دوبيت :

قد راح عدولي ومثل ما راح أني
بالله متى نقضتم العهد متى
ماذا ظنني بكم وماذا أملي
قد أدرك في سؤله من شمتا

* * *

هب النسيم عليلاً وهو النسيم الصحيح
وطاب وقتك فانهض فالآن طاب الصبح
وخذ عن الكأس نوراً به يضيء الفسيح
من قهوة طاب منها طعم ولون وريح
في دنها وهي راح وفي الحشا وهي روح

* * *

يا معرضاً متجنياً حاشاك يا عيني وروحي
لم تدري ما فعل البكا عليك بالحقن القريح

وَجَرَحْتَ قَلْبِي بِالْخُفَا
قُبِّحْتَ فِيَّ بِمَا فَعَدَا
إِنْ كُنْتَ مِنِّي مُسْتَرِيدَا
فَمَتَى أَفُوزُ بِنَظَرِي
لَكَ مِنْ ضَمِيرِي مَا عَلِمَا
وَكَذَلِكَ أَنْتَ فَسَلْ ضَمِيرِي
فَأَهْ لِلْقَلْبِ الْجَرِيحِ
تَ وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِ الْقَبِيحِ
بِحَا لَسْتُ مِنْكَ بِمُسْتَرِيحِ
مِنْ وَجْهِكَ الْحَسَنِ الْمَلِيحِ
تَ بِهِ مِنَ الْوَدِّ الصَّرِيحِ
بَرَكَ فَهُوَ يَشْهَدُ بِالصَّحِيحِ

* * *

يَا فَاعِلَ الْفَعْلَةِ الَّتِي أَشْتَهَرْتُ
فَعَلْتَهَا بَعْدَ عِقْفَةٍ وَتَقَى
هَذَا وَأَنْتَ الَّذِي يُشَارِلُهُ
لَمْ تَجْرِ فِي خَاطِرِي وَلَا خَلَدِي
فِيَالَهَا سَبَبٌ إِلَى الْأَبَدِ
لَا عَتَبَ مِنْ بَعْدِهَا عَلَى أَحَدٍ

* * *

حَبِيبِي تَأْتُهُ جِدًّا
حَمَانِي الشُّهْدُ مِنْ فِيهِ
وَهَيْفَاءُ كَمَا تَهْوَى
وَتُشْجِيكَ بِالْحَائِنِ
وَلَفِظٍ يُوجِبُ الْغَسْلَ
جَزَى الرَّحْمَنُ شُعْبَانًا
وَإِنْ عَشِنَا لَشَوْالٍ
أَطَالَ الْعَتَبَ وَالصَّدَا
وَخَلَّى عِنْدِي الشُّهْدَا
تُرِيكَ الْقَدَّ وَالْحَدَا
تُذِيبُ الْجَلَمَدَ الصَّلْدَا
عَلَى السَّامِعِ وَالْحَسَدَا
تَقْصِي الشُّكْرَ وَالْحَمْدَا
أَعْدُنَا ذَلِكَ الْعَهْدَا

* * *

قد أتانا الطَّبِيقُ المَدُّ
غيرَ أَنِّي لَا أُحِبُّ الـ
وأَتَانِي مِنْكَ شَعْرٌ
كاملُ الحَسَنِ فَمَا أُغْـ
آن بِالْوَرْدِ النَضِيدِ
وَرَدَ إِلَّا فِي الْخَدُودِ
كُلُّ بَيْتٍ بِقَصِيدِ
نَاهٍ عَنِ حَسَنِ الذَّشِيدِ

فِي رِثَاءِ :

أَمْسَيْتَ فِي قَعْرِ لَحْدِ
وَعِشْتَ بِعَدِكَ يَا مَنْ
وَرَحْتُ مِنْكَ بِوَجْدِ
وَدِدْتُ لَوْ عِشْتَ بِعَدِي

فِي هَجْوِ :

لَعَنَ اللَّهُ صَاعِدَا
وَبَنِيهِ فَنَازِلَا
وَأَبَاهُ فَصَاعِدَا
وَاحِدَا ثُمَّ وَاحِدَا

* * *

جاءَ الرَّسُولُ مُبَشِّرِي
أَهْدَى إِلَى سَلَامِهَا
وَأَشَارَ عَنْ بَعْضِ الْحَدِيدِ
إِنْ صَحَّ مَا قَالَ الرَّسُو
مِنْهَا بِمِيعَادِ الزِّيَارَةِ
وَأَتَى بِخَاتَمِهَا أَمَارَهُ
مِثْلَ وَحْبَدَا تِلْكَ الْإِشَارَةِ
لَوْ وَهَبْتُهُ رُوحِي بِشَارَةِ

* * *

حَبَّذَا دُورٌ عَلَى النِّيَّةِ
وَمَسَرَاتٌ تَمُوجُ الْأَرِ
وَقَصُورٌ مَا لَعِيشِ
لَوْ وَكَاسَاتُ تَدُورُ
ضُفُفٌ مِنْهَا وَتَمُورُ
نَلْتَهُ فِيهَا قُصُورُ

كم بها قد برّطى أسد
كل عيش غير ذاك الـ
متزلّ ليس على الأر
تتغفر الله سرور
عيش في العالم زور
مض له عندى نظير

* * *

وجاهل أصبح لى عائبا
أراه قد عرض لى عرضة
قلت على العينين والراس
أشهدكم يا معشر الناس

* * *

دعوني وذاك الرشا
حالا حالا له
سرت خمره الريق فى
فيا مشق ذاك القوا
مشى لى فى خفية
وليس عجيبا بان
فوجدى به قد فشا
يعدّبنى كيف شا
معاطفه فانتشى
م وياطى ذاك الحشا
فيا حبذا من مشى
ترى الظبي مستوحشا

* * *

مالى أراك أضعتنى
متهاكا فاذا حضر
فظا على ولم تكن
هذا وحق الله من
وحفظت غيرى كل حفظ
ت تطل فى نسك ووعظ
يوما على غيرى بفظ
نكد الزمان وسوء حظى

* * *

مائدة منوعة
وسادة تراضعوا
وقهوة مشعشعة
كأس الوداد مترعة

ولا يزيدون على
فاليوم يوم لم يزل
غيا أنى كن عندنا
ثلاثة أو أربعة
يوم سيكون ودعه
بعد صلاة الجمعة

تائه ما أصلفه
كاد أن يتلفه
أى روض زاهر
وقضيب ناعم
ويح قلب ألفه
ليت له لو ألفته
لم أصل أن أقطفه
لم أطق أن أعطفه

تعيش أنت وتبقى
حاشاك يا نور عيني
ولم أجد بين موتى
يا أنعم الناس قل لى
أنا الذى مت عشقا
تلقى الذى أنا ألقى
وبين هجر ك فرقا
الى متى فيك أشقى

أحبابنا حاشاكم
أحبابنا لا عاش من
هذا دلال منكم
والله ما خرجت فى
وما برحت فى ستو
ويلاه ما يلقاه قل
من غضب أو حقيق
يغضبكم ولا بقي
دعوه حتى نلتقى
حبي ليكم عن خلقي
ر فضلكم تعلقى
حي منكم وما لقي

إن لم تجودوا بالرضا
 وأنجلى منكم اذا
 أكاد أن أغرق في
 ما حيلتي في كذب
 فبشروا قلمي الشقي
 عتبتكم واحرقني
 دمعي أو في عرق
 من حاسدٍ مُصدقٍ

* * *

ويحك يا قلبُ أما قلتُ لك
 حرّكت من نار الهوى ساكنًا
 ولي حبيبٌ لم يدع مسلكًا
 ملكته رُوحى ويا ليتته
 بالله يا أحمس خديّه من
 وأنت يا نرجس عينيّه كم
 ويا لمن مرّ شفيه إني
 ويا مَهزّ الغصن من عطفه
 مولاي حاشاك تُرى غادرًا
 ما لك في فعلك من مُشبه
 إيّاك أن تهلك فيمن هلك
 ما كان أغناك وما أشغلك
 يُسميت بي الأعداء إلا سلك
 لو رق أو أحسن لما ملك
 عضك أو أدماك أو أنجلك
 تشرب من قلبي وما أذبلك
 أغار للمسواك إذ قبلك
 تبارك الله الذي عدّلك
 ما أقبح الغدر وما أجهلك
 ما تمّ في العالم ما تمّ لك

* * *

كل شيء منك مقبول
 والذي يرضيك من تأني
 وعلى العينين محمول
 هين عندي ومبدول

* * *

<p>أقواله ليس لها تأويل كثير ما يقوله قليل كلامه يوجه العقول فليتة كان له محمول هو الرصاص بارد ثقيل</p>	<p>وجاهل يجهل ما يقول لها فصول كلها فضول فهى فروع ما لها أصول أتعنى حديثه الطويل وجملة الأمر ولا أطيل</p>
---	---

* * *

<p>وتجنى فاطالا من حبيبي أم ملالا</p>	<p>ماله عني مالا أترى ذاك دلالا</p>
---	---

* * *

<p>لم تلق إلا كرمك لم تلق إلا خدمك</p>	<p>منزل إن زرتة وإن تسئل عمن به</p>
--	---

* * *

<p>ف من أنت أبا يحيى فحدثني وقُل لي أي شيء أنت في الدنيا من الموتى؟ من الأحياء؟ في شيء من الأشياء ولا سقيا ولا رعيا</p>	<p>أبا يحيى وما أعير فحدثني وقُل لي أي شيء أنت في الدنيا من الجن؟ من الإنس؟ بعيد منك أن تفلح فلا أهلا ولا سهلا</p>
---	--

* * *

<p>ناعم البال رضيا قارن البدر الثريا</p>	<p>ونديم يت منه جاءني يحمل كأسا</p>
--	---

قال خذها قلت خذها	أنت وأشربها هنيئاً
لا تزِدْني فوق سُكْرِى	بالهوى سكر الحميأ
عندها أعرَضَ عني	مُطْرِقَ الرأسِ حييأ
قلت لا والله إلا	هاتها كأساً رويأ
لستُ أعصِي لك أمراً	لستُ أعصِي لك نهياً
فسقانيها عُقَّاراً	تترك الشيخَ صبيأ
وتُريك الغيَّ رشداً	وتُريك الرشداً غيأ
لم يزل مني اليأسُ إلـ	كأسُ أومنه إليأ
هكذا حتى بدا الصُّبـ	ح لنا طلق الحميأ
يا لها ليلة وصلـ	مثلها لا يتهيأ

هذه أمثلة الأوزان التي يستعملها البهاء زهير في شعره والقوافي ،
وفيهما من اللطف وحسن النغمة شيء كثير .

وذكر بعض المترجمين للبهاء زهير أن له وزناً مُخْتَرَعاً لا يُخرجه
العروض ، في قوله :

يا مَنْ لَعِبْتُ بِهِ شُمُول	ما أَلْطَفَ هَذِهِ الشَّمَائِلُ
نُشْوَانٌ يَهْزُهُ دَلَال	كالغصن مع النسيم مائل
لا يُمكنه الكلامُ لكن	قد حَمَلَ طَرْفَهُ رَسَائِلُ .
ما أَطْيَبَ وَقْتَنَا وَأَهْنَأ	والعاذلُ غائبٌ وغافل

عشقٌ ومَسْرَةٌ وسِكْرٌ والعقلُ ببعضِ ذاكِ ذاهلٌ
والبدْرُ يلوح في قِنَاصٍ والغصنُ يميل في غلائلِ
والوردُ على الحدودِ غَضٌّ والنرجسُ في العيونِ ذابلُ
والعيشُ كما نُحِبُّ صافٍ والأنسُ بما نُحِبُّ كاملُ

ويُحاول العروضيون أن يجدوا لهذا الوزن مخرجاً في علمهم ،
كما فعل الدماميني في شرح الخَزَرَجِيَّة . وليس الذي يهمننا أن يكون
البهاء زهيراً بتدع أوزاناً لا يُسيغها علم العروض ، لكن البهاء زهيراً
من غير شك اختار لشعره ألطف الأوزان وأدناها محبةً الى الذوق
السليم ، وأستخرج من ذلك ما لم يكن مستعملاً في عهده ولا قبل
عهده ولا بعده إلا قليلاً .

* * *

ج — الناحية الثالثة — ناحية الموضوعات الشعرية .

ما وصل اليه من شعر البهاء زهير يجمع كل ما تعرّض له شعراء
العربية من فنون الشعر : كالمديح ، والهجاء ، والغزل ، والنسيب ،
والوصف ، والخرجات ، والرثاء ، والفخر .

ومديح البهاء زهير أقل شعره تشبّعاً بروحه في الغالب ، وله فيما
عدا ذلك نمطٌ خاصٌ يُخرج الموضوعات المطروقة الى نوع من
الطرافة . وذكر بامر مثلاً لذلك قوله في المشيب :

فقد انجلى ليل الشبا
ورأيتُ في أنوارِه

بِوقد بداصبح المشيب
ما كان يخفى من عيوبى

وقوله في الموت عشقا :

أنت رُوحى وقد تملكك رُوحى
ميتٌ شوقاً فأحيني بوصالٍ

وحياتى وقد سلبت حياتى
أخبر الناس كيف طعمُ المماتِ

وقوله :

نخذ مرةً رُوحى تُرحنى ولم أكن

أموتُ مراراً في النهارِ وأبعثُ

* * *

ألا إن عندى عاشقَ السمرِ غالطُ
وإنى لأهوى كلَّ بيضاءَ غادةٍ
وحسبي أنى أتبعُ الحقَّ فى الهوى

وإن الملاحَ البيضَ أبهى وأبهجُ
يضىءُ لها وجهٌ وثغرٌ مفلجُ
ولاشكَّ أن الحقَّ أبيضُ أبلجُ

* * *

يا كثير الصدود والإعراضِ
هاتِ بالله يا حبيبي قل لى
إن لى حاجةً اليك وإنى
حاجةٌ مذ أردتها أنا فى التَّعدِ
أملى فيك دونه سيفُ لحظِ
أشتهى أن أفوزَ منك بوعدِ

أنا راضٍ بما به أنت راضٍ
أين ذاك الرضا وأين التَّغاضى
فى حياءٍ عن ذكرها واتقباضِ
يرِيضُ عنها وأنت فى الإعراضِ
ذاك مستقبلٌ وهذاك ماضى
ودع العمرَ ينقضى فى التقاضى

يا مانعاً حلوا الرضا * * * وباذلاً مر السخط
حاشاك أن ترضى بأن أموت في الحب غلط

وغير ما ذكره يلمر كثير مضي بعضه فيما مرّ به ومنه قول
شاعرنا في كتمان اسم الحبيب :

فعرض إذا حدثت بالبان والجمي
وإياك أن تنسى وتذكر زينا
ستكفيك من ذاك المسمى إشارة
ودعه مصوناً بالجمال محجّباً

أشتر لي بوصف واحد من صفاته
تكن مثل من سمي وكفى ولقبا

عجبت لطيف زار بالليل مضجعي * * *
وعاد ولم يشف الفؤاد المعذباً
وما صد عن أمي مريب وإنما
رأني قتيلاً في الدجى قتيباً

* * *

وقوله في المشيب أيضاً :

وليس مشيباً ما ترون بعارضي
فلا تمنعوني أن أهيم وأطرباً
فما هو إلا نور غير لثمة
تعلق في أطراف شعري فأهلباً

وأعجبني التجنيسُ بيني وبينه فلما تبدَّى أشنباً رُحْتُ أشيباً
وهيفاء بيضاء الترائبِ أبصرتُ مشيباً فأبدتُ روعةً وتَعَجُّباً
جنتُ لي هذا الشيبَ ثم تجنَّبتُ فوا حرباً ممن جنى وتجنَّباً

جاءت تودعني والدمعُ يغابها
يومَ الرحيلِ وحادي البين مُنصَلِتُ
وأقبلت وهي في خوفٍ وفي دهْشٍ
مثلَ الغزالِ من الأشرارِ ينفلتُ
فلم تُطِقْ خيفةَ الواشي تودعني
ويح الوُشاة لقد نالوا وقد شمتوا
وقفتُ أبكى وراحتُ وهي باكيةٌ
تسير عني قليلاً ثم تلتفتُ

وقوله في الوُشاة :

إني لأشكر للوشاة يداً عندي يقلُّ لمثلها الشكرُ
قالوا فأغررونا بقولهم حتى تأكّد بيننا الأمرُ

وقوله في الغيرة :

وأنتزه اسمك أن تمرَّ حروفه من غيرتي بمسامع الجُلاليس
فأقول بعضُ الناس عنك كنايةً خوفَ الوُشاة وأنت كلُّ الناسِ

وأغار إن هبَّ النَّسيمُ لأنه
مُغَرِّى بهـ زَقَوا مِك الميَّاسِ
ويروغنى ساقى المُسَدِّام إذا بدا
فأظنَّ خَدَّكَ مشرقاً فى الكاسِ

* * *

صدق الواشون فيما زعموا
أنا مُغَرِّى بهواها مغرم
فليقل ما شاء عني لأئمى
أنا أهـواها ولا أحتشم
غلب الوجد فلا أكتمه
إنما أكتم ما ينكمم
أين من يرحمنى أشكوله
إنما الشكوى الى من يرحم
أيها السائل عن وجدى بها
إنه أعظم مما تزعم
ظنَّ خيراً بيننا أو غيره
فخبى فيه تحالو التهم

ورقة البهاء زهير فى غزله أظهر من أن تحتاج الى بيان ؛ وقد
استشهد لها بالمر بقول البهاء يخاطب رسول حبيبته :

ودعنى أفر من مقلاتك بنظرة
فعهدهما ممن أحب قريب

* * *

ومن مختاراته فى هذا الباب قوله :

وغانية لما رأتنى أعلوت
وقالت عجيب يا زهير عجيب
رأت شعراتٍ لحن بيضاً بمفرق
وغصني من ماء الشباب رطيب

لقد أنكرت مني مشيباً على صبا
وقالت مشيب؟ قلت ذاك مشيب
أروح ولي في نشوة الحب هزّة
ولست أبالي أن يقال طروب
محب خليع عاشق متّيك
يألدّ لقلبي كلّ ذا ويطيب
خلعت عذارى بل لبيت خلاعتي
وصرّحت حتى لا يقال مريب
وفي لي من أهوى وصرّح بالرضا
يموت بغيظ عاذل ورقيب
فلا عيش إلا أنت تدار مدامة
ولا أنس إلا أنت يزور حبيب
وإني ليدعوني الهوى فأجيبه
وإني ليثني على التقي فأنيب
فيأمن يحبّ العفو إني مذنب
ولا عفو إلا أن تكون ذنوب

* * *

أهوى الدقيق من المحا سن الرقيق من النسيب

* * *

ومن دلائل تساميه في فهم الجمال عن الصورة المبذولة الى
المعنى الدقيق ، تَغَزُّلُهُ في امرأة طويلة ، وفي امرأة قصيرة ،
وفي بيضاء ، وفي سمراء ، وتَغَزُّلُهُ في عمياء اذ يقول :

قالوا تعشقتها عمياء فقلت لهم

ما شأنها ذاك في عيني ولا قدحاً

بل زاد وجدي فيها أنها أبداً

لا تُبصر الشيب في خدي اذا وضحا

إن يخرج السيف مسلولاً فلا عجب

وانما عجي من مُغَمِّدٍ جرحا

كأنما هي بستان خلوت به

ونام ناظره سكران قد طفحا

تفتح الورد فيه من كائمه

والنرجس الغض فيه بعد ما آفتحا

وله أيضاً :

يا صار في القلب إلا عن محبتهم

وسالي الطرف إلا عنهم نظره

ويوم الليل في أمن وفي دعة

وليس عندكم علم بمن سهره

فكم غرستُ وفائي في محبتكم
 فما جنيتُ لغرسي فيكم ثمرة
 ولم أزل منكم شيئاً سوى تهم
 تُقال مشروحةً فينا ومُختصرة
 قوية العزم في إتلافِ عاشقها
 ضعيفة الحصر والأحاطِ والبشرة

ومن ذلك قوله :

فلا تبعثوا لي في النسيم تحيةً فیرتاب من طيب النسيم جليسي
 وكنتم وعدتم في الخميس بزورة فكم من خميس قد مضى وخميس
 واني لأرضي كل ما ترضونه فإن يرضكم بوسي رضيت بوسي
 على أن لي نفساً على عزيزة وفي الناس عشاقٌ بغير نفوس
 ويظهر في غزال البهاء زهير صدقُ اللهجة وكأل الفهم لجمال
 المرأة والتأثر به :

فلا تفرعوا بالعتب قلبي فإنه
 وحقكم مثل الزجاج صديق
 سابيكي وإن تنفذ دموعي عليكم
 بكيت بشعر رقيق فهو دموع
 أحب البديع الحسن معنى وصورة
 وشعري في ذاك البديع بديع

وله في العشق وتقديره نظر دقيق ، فهو يقول :

ملأتم فؤادي بالهوى فهو مترع

ولا كان قلب في الهوى غير مترع

ويقول أيضا :

لحي الله قلبا بات خلوا من الهوى

وعينا على ذكر الهوى ليس تذرف

وإني لأهوى كل من قيل عاشق

ويزداد في عيني جلالا ويشرف

وما العشق في الإنسان إلا فضيلة

تدمت من أخلاقه وتلطفت

يعظم من بهوى ويطلب قربه

فمكث آداب له وتظرف

* * *

أعشق الحسن والملاحة والظفر ف وأهوى مكارم الأخلاق

* * *

إني لأهوى الحسن حيث وجدته وأهيم بالغصن الرقيق وأعشق

* * *

فكل ضلال في هواك هداية وكل شقاء في هواك نعيم

لَا مَ فِي الْحُبِّ أَنْاسٌ * * * وَهُوَ أَخْلَاقُ الْكِرَامِ
مَا أَرَى النَّاسَ سِوَى الْعَشَّةِ سَاقٍ مِنْ كُلِّ الْأَنَامِ

ويقول :

يُحْزِي اللَّهَ عَنِّي الْحُبُّ خَيْرًا فَإِنَّهُ بِهِ آزْدَادٌ مُجْدِي فِي الْأَنَامِ وَعَلَيَّائِي
وَصِيرَ لِي ذِكْرًا جَمِيلًا لِأَنِّي أَحْسَنُ أَفْعَالِي لِتَحْسُنَ أَسْمَائِي

وقد يكون في هذا النظم بعض الضعف ، ولكنه يعبر عن معنى من أشرف المعاني وألطفها .

وغزل البهاء زهير فن في الأدب العربي خرج عن صور الغزل التي رسمتها التقاليد : فليس بكاءً على الأطلال والدمن ، ولا وصفًا لسفر الحبيب على ناقته تجوب الصحراء ، ولكنه حكاية لما يجري بين الأحباب في الحياة وما يتبادلونه من حوار وعتاب ، ونعت لمجالس ممتعة بين عاشقين ، ووصف للحب نفسه وما يحدث في نفس المحب من نزوع الى الكمال .

وقصائد البهاء زهير تكون عبارة عن موضوع متصل المعاني لا تجدد فيه ما تجد في غالب الشعر العربي من تنقل وأستطراد يكاد يفقد الصلة بين أجزاء الشعر الواحد . ويلاحظ أن البهاء زهير لا يتخرج من استعمال العبادة في الحب ، وهو نادر في الشعر العربي ، وذلك كقوله :
ومن العجائب فعله بحبه يُصليّه نارًا وهو من عباده

وقوله :

مأشكر حبا زان فيك عبادتي وإن كان فيه ذلة وخضوع
أصلّي وعندي للصباية رقة فكلّ صلاتي في هوالك خشوع

وقوله :

لى حبيب عبدي ويح من يعبد الوثن

ومن الفنون الجديدة في شعر البهاء زهير تسجيله لمشاهد
وصور تيم عن حبه لوطنه ، وتذوقه لما فيه من نعيم طبعي وغير
طبعي ، ونذكر من أمثله :

لله استأني وما قضيت فيه من المآرب
لهفي على زمني به والعيش مخضر الجوانب
ولكم بكرت له وقد بكرت له أيدي السحاب
فيروقي والحو من له ساكن والقطر ساكن
والطل في أغصانه يحكي عقودا في ترائب
وتفتحت أزهاره فتأرجت من كل جانب
وبدا على دوحاته ثمركا ذناب الثعالب
وكأنا آصاله ذهب على الأوراق ذائب
فهناك كم ذهبيّة لى في الولوع بها مذهب

* * *

وَأَصْوَاتُ الشَّحَارِيرِ	عَلَا حِسُّ النُّوَاعِيرِ
صَفَا مِنْ غَيْرِ تَكْدِيرِ	وَقَدْ طَابَ لَنَا وَقْتُ
أَدْرِهَا غَيْرَ مَأْمُورِ	فَقُومُ يَا أَلْفَ مَوْلَايَ
عَلَى رَغَمِ الدَّنَانِيرِ	وَوُخْذِهَا كَالدَّنَانِيرِ
تَزِدُ نُورًا عَلَى نُورِ	أَدْرِهَا مِنْ سَنَا الصُّبْحِ
بِلِ هَبَاءٍ غَيْرِ مَشُورِ	عُقَارًا أَصْبَحْتُ مِثْ
رَأَتْهَا عَيْنٌ مَقْرُورِ	بَدَتْ أَحْسَنَ مِنْ نَارِ
عَلَى بُسْطِ الْأَزَاهِيرِ	نَزَلْنَا شَاطِئَ النَّيْلِ
جَ وَجْهَهُ ذُو أَسَارِيرِ	وَقَدْ أَضْحَى لَهُ بِالْمَوِ
بِلِ أَنْصَافِ الْقَوَارِيرِ	وَفِي الشَّطِّ حَبَابٌ مِثْ
وَوَافَيْنَا بَتَبْكِرِ	تَسَابَقْنَا إِلَى اللَّهِوِ
وَفَيْنَا رَبُّ مَاخُورِ	وَفَيْنَا رَبُّ مُحَرَابِ
وَمِنْ قَوْمِ مَسَاخِيرِ	وَمِنْ قَوْمِ مَسَاتِيرِ
وَمِنْ حَقٍّ وَمِنْ زُورِ	وَمِنْ جَدٍّ وَمِنْ هَزْلِ
وَطُورًا فِي الدَّسَاكِيرِ	فَطُورًا فِي الْمَقَاصِيرِ
مِنْ الْقَبْطِ النَّحَارِيرِ	وَرَهْبَانِ كَمَا تَدْرِ
مِنْ الْإِحْسَانِ مَوْفُورِ	وَفِيهِمْ كُلُّ ذِي حُسْنِ
بِصَوْتِ كَالْمَزَامِيرِ	وَتَالِ لِلْمَزَامِيرِ

وفي تلك البرانيس	بدور في دياجير
وجوه كالتصاوير	تصلي للتصاوير
ومن تحت الزناير	خصور كالزناير
أتيناهم فما بقوا	ولا ضمنوا بمذخور
لقد مر لنا يوم	من الغر المشاهير
على ما خلت من غي	ير ميعاد وتقدير
فقل ما شئت من قول	وقدر كل تقدير

وليستطيع الناظر في شعر البهاء أن يستخرج أحوال عصره في كثير من الشؤون : فهو يُشير إلى عادات وشؤون دينية وغير دينية . وموضوعات شعره متصلة بعواطفه وبحياة زمنه أشد الاتصال ، بخلاف غيره من الشعراء الذين يكون شعرهم صورة لحياة غير حياتهم ، وعواطف غير عواطفهم .

وهذه نماذج مما يتضمنه شعر البهاء زهير من شؤون عصره :

أنا في الحب صاحب المعجزات	جئت للعاشقين بالآيات
كان أهل الغرام قبلي أمي	ين حتى تلقنوا كلماتي
فأنا اليوم صاحب الوقت حقا	والمحبون شيعتي ودعائي
ضربت فيهم طبولي وسارت	خافقات عليهم راياتي

تكننت في الأمر الذي قد لقيته	ولي خطرات كلهن فتوح
------------------------------	---------------------

والله مذهباً فارتكم
فهل زمانى بعدها
فكم ندور أصبحت
لم تصف لي مواردى
بقربكم مساعدى
على الساجد

أيا معشر الأصحاب مالى أراكم
فهل أنتم من قوم لوط بقیة
فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم
على مذهب والله غير حميد
فما منكم من فعله برشيد
فما قوم لوط منكم بيعيد

وجاهل يدعى فى العلم فلسفة
وقال أعرف معقولا فقلت له
من أين أنت وهذا الشئ تذكره
فقال إن كلامى لست تفهمه
قد راح يكفر بالرحمن تقليدا
عنيت نفسك معقولا ومعقودا
أراك تفرع باباً عنك مسدودا
فقلت لست سليمان بن داودا

إذا ما أفضنا فى أفانين ذكره
يقول جهول القوم قد عبر الخضر

وصاحب أصبح لى لائماً
قلت له إني امرؤ لم أزل
ما هذه أقول ما مررت بى
دعني وما أرضى لنفسى وما
لو نظر الناس لأحوالهم
لما رأى حالة إفلاسى
أفنى على الأكياس أكياسى
كم مثلها مررت على راسى
عليك فى ذلك من باس
لاشتغل الناس عن الناس

قَلَّ الثَّقَاتُ فَلَا تَرَكَّنْ إِلَى أَحَدٍ * * *
لَمْ أَلْقَ لِي صَاحِبًا فِي اللَّهِ أَصْحَابَهُ
فَأَسْعِدُ النَّاسَ مَنْ لَا يَعْرِفُ النَّاسَا
وَقَدْ رَأَيْتُ وَقَدْ جَرَّبْتُ أَجْنَاسَا

قَصِدْتُكُمْ أَرْجُوا انتِصَارًا عَلَى الْعِدَا * * *
فَلَمْ تَمْنَعُوا جَارًا وَلَمْ تَنْفَعُوا أَخَا
حَسِبْتُمْكُمْ نَاسًا فَمَا كُنْتُمْ نَاسَا
وَلَمْ تَدْفَعُوا ضِيًّا وَلَمْ تَرْفَعُوا رَاسَا

لَمَّا التَّحَى وَتَبَدَّلَتْ * * *
أَبْدَيْتُ لَمَّا رَاحَ يَحْ
وَأَذَعْتُ عَنْهُ أَنَّهُ
لَيْسَ غَدًا وَعِذَارُهُ
تِلْكَ السَّعُودُ لَهُ نُحُوسَا
يَلِيقُ خَدَّهُ مَعَنِي نَفِيسَا
لَمْ يَقْصِدِ الْقَصْدَ الْحَسِيسَا
خَضِرَ فَسَاقٍ إِلَيْهِ مُوسَى

مَا أَصْعَبَ الْحَاجَةَ لِلنَّاسِ * * *
لَمْ يَبْقَ فِي النَّاسِ مُوَاسٍ لِمَنْ
وَبَعْدَ ذَا مَا لَكَ عَنْهُمْ غِنَى
فَالْغَنَمُ مِنْهُمْ رَاحَةُ الْيَاسِ
يُظْهِرُ شَكْوَاهُ وَلَا آسَى
لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنَ النَّاسِ

أَحِبَّائِنَا حَاشَاكُمْ مِنْ عِيَادَةٍ * * *
فَذَلِكَ أَمْرٌ فِي الْقُلُوبِ مَضِيضُ
وَمَا عَاقَبَنِي عَنْكُمْ سِوَى السَّبْتِ عَائِقُ
فَفِي السَّبْتِ قَالُوا مَا يُعَادُ مَرِيضُ

وللناس عاداتٌ وقد ألفوا بها
 لها سننٌ يَرَعُونَهَا وفروضهم
 فمن لم يُعاشِرْهم على العُرفِ بينهم
 فذلك ثَقِيلٌ بينهم وبَغِيضٌ

* * *

وقائلة لما أردت وداعها
 فيارب لا يصدق حديث سمعته
 وقامت وراء الستر تبكي حزينة
 بكت فأرتني أولوا متناثرا
 ولما رأيت أن الفراق حقيقة
 تبدت فلا والله ما الشمس مثلها
 تسلم باليمنى على إشارة
 وما برحت تبكي وأبكي صباية
 ستصبح تلك الأرض من عبرتنا
 حبيبي أحقا أنت بالبين فاجعي
 لقد راع قلبي ما جرى في مسامعي
 وقد نعبته بيننا بالأصابع
 هوى فالتفته في فضول المقامع
 وأنى عليه مكره غير طائع
 إذا أشرقت أنوارها في المطالع
 وتمسح باليسرى مجارى المدامع
 الى أن تركنا الأرض ذات نقائع
 كثيرة خصب رائق النبت رائع

* * *

أيها النفس الشريفة
 وعقول الناس في رغب
 آه ما أسعد من كا
 أيها المسرف أكثر
 أيها المغرور لا تف
 إنما دنياك جيفة
 بينهم فيها سخيفه
 رته فيها خفيفه
 ت أبازير الوظيفة
 رخ بتوسيع القطيفة

أيها المسكين هَبْ أَنتَ بك في الدنيا خايفه
هل يَرُدُّ الموتَ سلطا نَكُ والدنيا الكشيفه

كلامي الذي يصبو له كلُّ سامع
ويهواه حتى في الخلدور العواتق
كلامي غني عن لحون تزيينه
له معبد من نفسه ومُخَارِق
لكلِّ امرئ منه نصيب يخصه
يلائم ما في طبعه ويوافق
يغني به الندمان وهو فكاهة
ويُنشده الصوفي وهو رقائق
به يقتضي الحاجات من هو طالب
ويستعطف الأحباب من هو عاشق

تعلمت خط الرمل لما هجرتُم	لعلِّي أرى شكلاً يدلُّ على الوصل
ورغبتني فيه بياض وحمرة	عهدهما في وجنة سلبت عقلي
وقالوا طريق قلت يارب للرضا	وقالوا آجتماع قلت يارب للشمل
فأصبحت فيكم مثل مجنون عامر	فلا تنكروا أني أخط على الرمل

وإذا كان البهاء زهير شاعر مهنة في مدائحه غالبا ، فهو في سائر
قريضه شاعر الطبع ، وله نفثات تجلّى نفسه على ما هي عليه مترسم
سجايها ، كقوله :

يا سائلي عما تجدد بي الحال لم تنقص ولم تزد
وكما علمت فإني رجل أفنى ولا أشكو الى أحد

* * *

ومن خلقني أنى ألوف وأنه
يطول التفاتى للذين أفرق
يحرك وجدى فى الأراكة طائر
ويبعث شجوى فى الدجنة بارق
وأقسم ما فارقت فى الأرض منزلا
ويذكر إلا والدموع سوابق
وعندى من الآداب فى البعد مؤنس
أفرق أوطاني وليس يفارق
ولى صبوة العشاق فى الشعر وحده
وأما سواها فهى منى طالق

* * *

مذ كنت لم تكن الحيا نه فى المحبة من خلاقي
ولقد بكيت وما بكيت من الرياء ولا النفاق

برقيقة الألفاظ تح
لم تدر هل نطقت بها ال
لطفت معانيها ورقة
مصرية قد زانها
كي الدمع إلا في المذاق
أفواه أم جرت المآق
تت والحلاوة في الرقاق
لطفًا مجاورة العراق

* * *

كذلك تلقاني اذا ما ذكرتي
اذا قلت قولاً كنت للقول فاعلا
تبشّر عني بالوفاء بشاشتي
يسر حفاظي صاحبي وقريني
وكان حياي كافي وضميني
وينطق نور الصديق فوق جيني

* * *

الى كم مقامي في بلاد معاشير
وقلدها الدر الثمين وإنه
وما ضاقت الدنيا على ذي مروءة
تساوى بها آساده وذئابها
لعمرك شيء أنكرته رقابها
ولا هو مسدود عليه رحابها

* * *

وإني اذا آرتاب الوشاة لأدعي
وأستعمل الكحل الذي فيه حدة
فيا صاحبي أقما على فلا تخف
ودعني والعدال مني ومنهم
لدى حجاج لم يبيدها عاشق قبلي
وأوهم أن الدمع من شدة الكحل
فما يطمع الواشون في عاشق مثلي
سيذرون من منا يمل من العدل

وكتب الى الوزير نحر الدين أبي الفتح عبد الله بن قاضي داريا

يشكو اليه بعض غلمانته :

سوالك الذي ودى لديه مضيع	وغيرك من يسعى اليه محيب
ووالله ما آتيك إلا محبة	وإني في أهل الفضيلة أرغب
فمالي ألقى دون بابك جفوة	لغيرك تعزى لا إليك وتنسب
أردت رد الباب إن جئت زائراً	فياليت شعري أين أهل ومرحب
ولست بأوقات الزيارة جاهلاً	ولا أنا ممن قربه يتجنب
وقد ذكروا في خادم المرء أنه	بما كان من أخلاقه يتهدب
فهلأ سرت منك اللطافة فيهم	وأعدتهم آدابها فتأدبوا
ويصعب عندي حالة ما ألفتها	على أن بعدى عن جنابك أصعب
وأمنك نفسي عن لقاءك كارهاً	أغالب فيك الشوق والشوق أغلب
وأنف إما عزة منك نلتها	وإما لإدلال به أتعب

* * *

أغار على حرف يكون من أسمها	إذا ما رآته العين في خط كاتب
----------------------------	------------------------------

* * *

فلكم في من مكارم خلق	ولكم في من حميد صفات
لست أرضى سوى الوفاء لذي الود	ولو كان في وفائي وفاتي

وَأَلُوفٌ فَلَوْ أَفَارَقُ بؤْسًا لسوالت لفقده حَسْرَاتِي
 طاهر اللفظ والشماثل والأخلاق عَفُ الضمير واللحظَاتِ
 وممع الصمت والوقار فإني دَمِيتُ الخُلُقِ طَيِّبُ الخَلَوَاتِ

* * *

وَمِنْ خُلُقِي المشهورِ مذ كنتُ أني
 لغير حبيبٍ قَطُّ انْ أَتَذَلَّ
 وقد عشتُ دهرًا ماشكوتُ لحادثٍ
 بلى! كنتُ أشكو الأغيدَ المتَدَلَّ
 وما هُنتُ إلا للصبايةِ والهَوَى
 وما خفتُ إلا سطوةَ الهجرِ والقلى
 أروح وأخلاقى تذوبُ صبايةً
 وأغدو وأعطاني تسيلُ تغزلاً
 أَحِبُّ مِنَ الظبيِ الغريرِ تَلَفَّتَا
 وأهوى من الغصنِ النضيرِ تَفَتَّلَا
 فما فاتني حظي من اللهو والصَّبا
 وما فاتني حظي من المجدِّ والعلا

* * *

أيها الحاملُ همًّا إن هذا لا يدومُ
 مثلُ ما تفنى المسرور أتُ كذا تفنى الهمومُ

* * *

حبّذا نفحة ریح	فرجت عني غمه
ضربت ثوب فتاة	أكثرت تيبها وحشمه
فرأيت البطن والد	رة والخصر وممه

* * *

أنا بالفراق مروع أبدا ذا طالعي فيه وذا نجى

* * *

أحب من الأشياء ما كان فائقا	وما الدون إلا من يميل الى الدون
فأهجر شرب الماء غير مصنفق	زلال وأكل اللحم غير يمينا
وإن قيل لي هذا رخيص تركته	ولا أرتضى إلا بكل ثمين

* * *

خاني من تصنع	للورى أو تزين
فلعمري يريدني	فرط هذا التسنن

وقال وقد سمع إنسانا يقدر في رجل صالح من مشايخ
الصوفية :

أيقدر فيمن شرف الله قدره	وما زال مخلصا به طيب الثنا
لعمرك ما أحسنت فيما فعلته	وليس قبيح القول في الناس هينا
فيا قائلا قولا يسوء سماعة	بحقك نزهنا عن الفحش والحناء
نطقت فلم تحسن ولم تبقي ساكنا	لقد فاتك الأمر الذي كان أحسنا

دَعِ الْقَوْمَ إِنْ الْقَوْمَ عَنْكَ بِمَعْرِلٍ وَإِنَّكَ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ لَفِي غِنَى
رَجَالٌ لَهُمْ سِرٌّ مَعَ اللَّهِ خَالِصٌ وَلَا أَنْتَ مِنْ ذَاكَ الْقَبِيلِ وَلَا أَنَا
تَكَلَّفْتَ أَمْرًا لَمْ تَكُنْ مِنْ رَجَالِهِ لَكَ الْوَيْلُ مِنْ هَذَا التَّكَلُّفِ وَالْعَنَاءِ
تَمِيلُ إِلَى الدُّنْيَا وَتُبْدِي تَزْهَدًا وَلَا أَنْتَ مَعْدُودٌ هُنَاكَ وَلَا هُنَا

وفي كتاب "النجوم الزاهرة" في ترجمة البهاء زهير: «وبرع في النظم والنثر والترسل، وله الشعر الرائق الفائق، وكان رئيساً فاضلاً، حسن الأخلاق، ... ومن شعره:

ولما جفاني من أحب وخائني حفظت له الود الذي كان ضيِّعاً
ولو شئتُ قابلتُ الصدودَ بمثله ولكنني أبقيتُ للصالح موضعاً
وقد كان ما قد كان بيني وبينه أكيداً ولكني رعيتُ ومارعياً
سعى بيننا الواشي ففترق بيننا لك الذنبُ يا من خائني لا لمن سعى

وكتب عند موته بالديار المصرية، على يد ولده صلاح الدين، إلى محمد بن الحكيم عماد الدين الديريني، وهو آخر ما قاله:

ما قلتَ أنت ولا سمعتُ أنا هذا حديثٌ لا يليقُ بنا
إنَّ الكرام إذا صحَّبتهم ستروا القبيحَ وأظهروا الحسن
